



فؤاد افرام البستاني

في مئويته ولادته

١٩٠٤ - ٢٠٠٤



Exchange In 2009
Notre Dame University
Library
Lebanon

سلسلة
آفاق ثقافية

فؤاد افرام البستاني في مئويّة ولادته

١٩٠٤ - ٢٠٠٤

تحرير
منشورات
جورج مغامس
جامعة سيّدة اللويزة © - الحقوق محفوظة
ص.ب.: ٧٢ زوق مكاييل - لبنان
تلفون: ١/٢١٨٩٥٠/٠٩
فاكس: ١/٢١٨٧٧١/٠٩

www.ndu.edu.lb

تنفيذ
الطبعة الأولى
القياس
مطابع معوشي وزكريّا
حزيران ٢٠٠٤
١٤,٥ x ٢١,٥ سم

ISBN: 9953-418-55-1

سلسلة
آفاق ثقافية

فؤاد افرام البستاني

في مئويّة ولادته

١٩٠٤ - ٢٠٠٤

تنظيم

جامعة سيّدة اللويزة، فرع الشوف - دير القمر

الجمعة ٢٨ أيار ٢٠٠٤

منشورات
جامعة سيّدة اللويزة

NU
PRESS

في البرنامج

الافتتاح

سهيل مطر

رئيس جامعة سيّدة اللويزة الأب بطرس طريه

نائب رئيس مجلس النواب إيلي الفرزلي

الوزير مروان حماده

النقيب عصام كرم

د. حارث البستاني

ذكريات

المشاركون: النقيب محمّد البعلبكي

د. ألبير ساره

هنري زغيب

جلسة أكاديمية

رئيس الجلسة: د. منصور عيد

المشاركون: د. أحمد أبو حاقّة

د. دياب يونس

د. غالب غانم

د. أهيف سنّو

الافتتاح

سهيل مطر

رئيس جامعة سيّدة اللويزة الأب بطرس طرييه

نائب رئيس مجلس النواب إيلي الفرزلي

الوزير مروان حماده

النقيب عصام كرم

د. حارث البستاني



سهيل مطر
مدير العلاقات العامة

رزق الله

أيها الأصدقاء

... وتبقى دير القمر هي الجامعة، ويبقى فؤاد افرام البستاني هو الجامع،
وتبقى جامعة سيّدة اللويزة مساحة تلاقٍ وحوار ومحبة؛ وما جمعته دير القمر
وفؤاد افرام البستاني وجامعة سيّدة اللويزة، لا تفرّقه أهواء أو انتخابات أو
تجاذبات عابرة.

فتقديرًا لهذه المناسبة، وتحيّة لفؤاد افرام البستاني، نقف جميعاً دقيقة
إعجاب وتقدير، والوقت ليس للحداد والحزن، احتراماً لذكرى هذا الرجل
الكبير.

أيها الأصدقاء

أدع جانباً علاقتي الشخصية بفؤاد افرام البستاني، وهي نتيجة عاملين:
الأول أنني كنت طالباً، في الستّينات، في الجامعة اللبنانية، وكان هو رئيساً،
وكنا يومئذ، كطلّاب، أصحاب أحلام كبيرة: كان همّنا التغيير، بناء الدولة،
ترسيخ قواعد الحرية والديمقراطية. وكنا نتجاوز، أحياناً، حدود لبنان، إلى
المطالبة بتغيير المنطقة والعالم. وكانت الوسيلة: الإضراب - التظاهر -
الاعتصام؛ وأولاني رفاقي والزلاء مسؤولية رئاسة الهيئة الطلّابية، وكانت
مواجهات كلاميّة وصدامات، والطلّاب المشاغب يصوّب على رئيس

جامعته، ويقابله الرئيس بتلك الابتسامة الأبوية: يا ابني، روق. وتتردد هذه الـ
"يا ابني" حتّى اليوم، تحمل معها الخبرة والمحبة والطيبة.

العامل الثاني، رفقتي وزمالتني وصداقتي لبعض أولاده، ولا سيّما حارث،
وهي زمالة تجاوزات الصف إلى صداقة يحلو معها السمر واللهو. وكان بيت
الوالد، في دير القمر، مسرحاً لبعض لقاءاتنا ولهونا؛ ورئيس الجامعة، يفضّ
الطرف... فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر...

أترك هذين العاملين، لأقف فقط عند الصورة:

رغم غنى الحياة الجامعية، وفي مختلف المراحل والتطوّرات، فإنّني لا
أحتفظ إلاّ بصورة تسلمني الشهادة من يد فؤاد افرام البستاني.

سيّدي الرئيس

اليوم، باسم أجيال تسلمت الشهادة من يديك، أقول لك شكراً،
وأضيف: أنا نادم كثيراً على الحجارة التي وجهتها إليك، وأنتَ شجرة
الأبجدية المثقلة بالثمار. وأمام هؤلاء الحضور أعترف أنّ كلماتي إليك، هي
بعض ما أعطيتني، فهذه بضاعتك تردّ إليك.

ويا سيّدي، يا رئيس الجامعة،

الطالب المشاغب، يقف اليوم، أمامك، ليقول: رزق الله!

لا تسألني: على ماذا؟ أو لماذا؟

موجع صوت الأحلام وهي تتكسّر!

وبعض الكلام ببعض الدمع يختصر!!

وشكراً.

الأب بطرس طرييه رئيس جامعة سيّدة اللويزة

أيّها الأصدقاء

أهلاً بكم، في جامعة سيّدة اللويزة، وفي هذه البلدة المعطاء، وفي هذا الجبل الكريم، بشراً وشجراً وحضارة.

نحن على موعد، اليوم، مع فؤاد افرام البستاني، ونقف في ظلال روحه، عند ثلاثة عناوين:

- الهوية: ابن البستاني، ابن دير القمر، ابن الشوف، ابن لبنان، أبو يحيى، المارونيّ المنفتح، المغامر، الباحث، العروبيّ بامتياز يوم العروبة هي ثقافة وأخوة وروائع لم يكتشفها أحد كما كشفها فؤاد افرام البستاني.

- الجامعة: هو، ولا شك، مؤسس الجامعة اللبنانية، ورئيسها لسنوات طويلة؛ ولكنّه، في عطاءاته، هو الجامعة اللبنانية، بالمعنى الحضاريّ الوطنيّ. وما لقائنا اليوم، حول اسمه، إلّا دلالة على شموليّة هذا الرجل وعطاءاته. ونحن، وإن كنّا مسؤولين، في جامعة خاصّة، إلّا أنّنا نعترف، أمامكم، أنّ هذا الرجل قاد الجامعة اللبنانية، بعمل وجهد ونشاط، حتّى أوصلها إلى المستوى الراقى البناء؛ وكثيرون مثّا هم ثمرة تلك الجامعة، التي نريدها، دائماً، زهرة الجامعات.

- الموسوعيّ الكبير: هذا الرجل لا يُسجن ضمن قفص واحد، كأنّ نقول عنه: معلّم، مؤرّخ، روائيّ، لغويّ، أديب، أستاذ جامعيّ، رئيس جامعة،

باحث، دكتور، مجموعة أوسمة وألقاب... لا، هو أكبر من لقب ووسام ومقام. إنه مجموعة قيم وأعمال وابداعات وروائع. وكم نحن، بحاجة، في هذا الزمن، إلى مثل هؤلاء الناس. فإذا كان الآخرون عدداً، فهو وحده الجودة والقياس، وإلى قامته يتطاول الآخرون.

أيها الأصدقاء

انطلاقاً من هذه العناوين، تفخر جامعة سيّدة اللويزة باستقبال هذه الكوكبة المضيئة من أهل العلم والأدب والوطنية، وهي تعتبر أنّ إحياءها ليوم فؤاد افرام البستاني، في مئوية ولادته، وفي عشية وفاته، إنّما هو واجب إنسانيّ وطنيّ حضاريّ، كما هو، وبصورة خاصّة، واجب شخصيّ على الرهبانية المارونية المريميّة، وهو الصديق الذي، ولسنوات عديدة، كان يمضي أسبوع الآلام في دير سيّدة اللويزة في زوق مصبح، حيث كان للجلسات معه نكهة الثقافة والظرف على بعض التقشّف في الطعام، وعلى الكثير من الصلاة النابعة من القلب.

وإذا كان فؤاد افرام البستاني، قد خرج من سجن الجسد، إلى فضاء الروح، فقد خرج قبل ذلك، من سجن الإدارة والوظيفة والمهنة، إلى فضاء الوطنية الرحب، ويبقى اسمه علامة مضيئة في تاريخ لبنان، وفي بناء حضارة النهضة العربيّة.

فتحيّة تقدير لمن نظّم هذا اللقاء ولمن عاون على إحيائه، منوهاً بجهود مكتب العلاقات العامّة وإدارة هذا الفرع وإدارة فدرال بنك، مؤكّداً لكم أنّ هذه الجامعة ستبقى منبراً مفتوحاً لكلّ نشاط حضاريّ خلاق؛ فبالحرية والبحث والحوار تحيا الجامعة ولبنان. عشتم وعاش لبنان.

إيلي الفرزلي نائب رئيس مجلس النواب

أيها الكرام

علامة الأدب والثقافة، جهيد العربية، هيرودوتس التاريخ، رائد النبل السياسي والصحافي ذو الكلمة الفصل والرأي القاطع كحد السيف، من وعى حقائق الكيان اللبناني المتجذر في العصور والأصالة، موسوعة الفكر وسادن شتى فروع المعارف، مربّي الأجيال من الكبار، الدكتور فؤاد أفرام البستاني أخذ إلى السكينة ورحل بعد أن "ملا الدنيا وشغل الناس"، كاتباً استفاراً بمداد الذهب، ومرصعاً جبهة الخلود بما لا يتركه زوال.

بين خمسة، أو ستة من كبار الشرق ولبنان، كان وسيظل جذوة نور وشعلة معرفة.

غرب في بطون التواريخ القديمة، وشرق في أعماق الماضي وأساطيره، فأعطى لبنان والتاريخ العالمي، القديم والحديث، ما يشرف ويتهر.

وسم فؤاد البستاني في القرن العشرين بسمّة الغزارة والنوعية، فكان له تراث القصّة والأدب والنقد وطرائق التعليم والتاريخ ودائرة المعارف وملاحم الاغتراب وسير القديسين، ولم يترك موضوعاً يفلت من قبض ريشته.

البستاني المؤلف الموسوعي، المربي وأستاذ المعاهد ورئيس الجامعة اللبنانية الذي ثبت لها أركاناً، هو معلّم الفلسفة والتاريخ والأدب، وأستاذ

المعلمين، شَرَّفَ الأكاديمية الدولية للعلوم السياسية في "جنييف" بانتمايه إليها.

أحبُّ فؤاد، كما جبران، في الأدب، ثلاثة: التمرُّد والإبداع والتجرُّد، وكره، مثله، في الأدب ثلاثة: التقليد والمسخ والتعقيد.

وهو، طالما صَبَغَ أدبه ولونَ تاريخه بأسلوبٍ ناصعٍ واضحٍ تأسره البلاغة وقوة السبك والجزالة، فكان له نثرٌ مُمتعٌ مُمتنعٌ جعله نسيجَ وحده. وفيه، قبل غيره، يصحُّ قولُ "بوفون": "الأسلوبُ هو الإنسانُ نفسه".

ما من شكٍّ أنَّ بينه وبين الجاحظِ وشائجَ قرْبى وصلاتٍ ظرفٍ وتندُرٍ، على أنَّ أديبنا الكبير، كان أكثرَ غُمقاً وأغزرَ علماً ومُعْطياتٍ حضاريةً.

لقد جَمَعَ، له، ثروة، لا من كنوز الدنيا ومتاعها، ولكن من الثقافةِ اصْطَفَاهَا، ومن الروائعِ.

قال ميشال شيحا: "إنَّ عصراً من دونِ شعرٍ كارثةٌ كونويَّةٌ"، ونحن نقول: إنَّ عصراً من دونِ فؤاد البستاني كارثةٌ ثقافيةٌ.

ما أعطى البستانيُّ كان فيضاً من سخاءٍ ومحبةٍ، مُمَثِّلاً قولَ بولس الرسول: "لو كنتُ أنطقُ باللسنةِ الناسِ والملائكةِ ولم تكن في المحبةِ، فإنَّما أنا نحاسٌ يطنُّ أو صنجٌ يرنُّ".

يكفيه فخراً أنَّه جعلَ ديرَ القمرِ حاضرةَ التاريخِ اللبنانيِّ فكراً وسياسةً، ودونَ اسمها في سفرِ الخلودِ.

شكراً لرهبةِ الإخوةِ المريميين الذين تذكروا هذا العظيم في الذكرى المئوية على ودلاته. الشكرُ لكم جميعاً.

فؤاد البستاني عبقرى فذٌ من بلادى لن ينساها وطن الأرز مادام تُسغ المعرفة
”يسيل في شرايينه وينمي الثقافة والأجيال“.

لقد كان فؤاد أفرام البستاني معلّم المعلمين وخاتم كبار المثقفين.
عشتّم، عاشت الثقافة وعاش موطنها لبنان.

من غمده الكبر لو ينضو، فالقلم
سيف، على حده الإبداع ينتظم
إن سال حبر على طرس شدت كُتُب،
أو سل غضب، تلاشى الشك والندم.

خلف الضلوع رحاب الحب مشرعة،
ذاك اليراع فؤاد، والميداد دم

يوم التباري، إذا فرسانه انتهرت
ذهماً، فإن هو إلا الرأس والحكم.
ما كان ”نابغة“، لو كان عَصْرِيذ
في حضرة منه؟ هلاً تنطق الرمم...

بحر الثقافة، لج العلم، يا جبلاً،
إلى ذراه يحجّ المجد والشمم،

لِمَ قَالَ، قَبْلًا، سَعِيدٌ: كُنْتَ تُهْوِي غُلَا؟
دَابُّ الْعِظَامِ، إِلَيْهِمْ تَصْعَدُ الْقِمَمُ!

هَلْ غَابَ عَنْكَ بَيَانٌ أَوْ ضُرُوبٌ حِجْيٌ؟
أَتَمَمْتَ مَغْرِفَةً، أَصَغْتَ لَكَ الْأُمَمُ.

حَاضِرَتْ فِي شَرْقِنَا، فِي الْغَرْبِ مَقْلَبِهِ،
فِي كُلِّ صُقْعٍ، أَهْلُ الْغَرْبِ وَالْعَجَمُ؟

هَزُّ الْمَنَابِرِ يَا ابْنَ الدَّيْرِ، يَا قَمَرًا
تَاجُ الْبَلَاغَةِ فِي فَوْدَيْهِ، وَالنُّجُمُ!...

وَسَمْتُ عَصْرًا بِوَشْمِ الْفِكْرِ مُشْتَمِلًا
بِالظُّرْفِ وَالنُّبْلِ، أَنْتَ الْكَاسُ وَالْجَمُّ!
لَمَّا سَمِعْتُكَ تَشْكُو، مَرَّةً، وَجَعًا
ضَامَ الْبِلَادَ، عَرَانِي مِنْكُمْ سَقَمُ.

”إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْلِ بَارِزَةً“،
لَا تَخْشَ شَرًّا، فَلَيْتُ ”الدَّيْرُ“ يَبْتَسِمُ!
ذَلِكَ النَّبِيُّ!... فَمَا سَيْفٌ وَدَوْلَةُ
إِذْ أَنْثَمَا دَوْلَةُ الْآدَابِ، مُغْتَصِمُ؟!

يَمْضِي الْمُلُوكُ، وَيَبْقَى الْخَالِدُونَ بِهَا
دُنْيَا، فَخُذْ صَوْلَجَانًا عَرْشَهُ الْكَلِمُ!

"بغداد حاضرة"؟ بيروت ضرتها
 لو مومي منك طرف، بايعوا، حسموا
 ملفان دين ورؤيا، ذاخر طرفاً،
 ما زلت أعظمهم شأنًا، وإن عظموا
 شههم الشعور، وعقل راجح، أبدأ،
 يا جاحظ العصر، لم تشبعكمما نهم...
 موسوعة الأدب، التاريخ، أرحبهم
 علماً وصندراً... هزاز أنت ا هم بكم
 إن أفصحوا وصفت نياتهم، ذكروا
 أن أنت غيث، عليهم كم له نعم
 يحفوا الكبار، ويستغدي عمالقها،
 غر ووغد هزيل النفس، أو قزم
 ويوم ساد على أوقاف جامعة،
 أمسى الرئيس: هو الراعي، هم غنموا...
 مخرابة رايض في قدس هيكليه،
 لو مد راحته، "فالركن يستليم"...

رَبِّي مُرَبِّينَ لِلْأَجْيَالِ، سَلَّمَ هُمْ
دَرْبَ الْعُلَى شَرُّقُوا، أَثَرَاهُمْ كَرُمُوا

هو المليكُ على العرشينِ في وَطْنِ:
تاجُ على رأسِهِ لِلْعِلْمِ، وَالْعَلَمِ...

إِذَا تَرْتَمَ غُصْنُ الْأَرْزِ، مَادَ غَيَّوً،
لِبَنَانٍ يَذْكُرُهُ، مَا هَلَّتِ الدَّيْمُ

وَالْيَوْمَ، فِي صَرْحِهَا، رَاحَتِ تَكْرُمُهُ
أَخْبَارُ دِينَ عَلَى اسْمِ الْحَرِيمِ ارْتَسَمُوا،

فَالدَّيْرُ بَاقٍ عَرِيفاً، وَالذَّرَى أَجْمَافاً،
مِنْ تَرْبِهَا يَنْبِتُ الْأَبْطَالُ وَالْعُظَمَاءُ،

وَالْمَرْيَمَاتُ رَأَيْنَ الْقَبْرَ، لَا حَجَرًا...
وَالْمَرْيَمِيُّونَ دَوَّوْا: يُحْطَمُ الصَّنَمُ...

إِنْ مَاتَ ظِلٌّ لَهُ رُوحَانِ، لَا جَسَدَ،
بِالْعَقْلِ نَبْضُ، وَسِرُّ الْمَوْتِ مُكْتَتَمُ:

رُوحٌ سَمَتْ بِسَدِيمِ الْكَوْنِ تَرْقُبُهُ،
رُوحٌ هُنَا، تَرْتَدِي أَنْوَابَ مَنْ لَهُمْ

خَلَّى فَوَادُ كُنُوزاً لَيْسَ يَكْنِزُهَا
إِلَّا السَّرَاةُ... سِوَاهَا الثَّرْبُ وَالْحُطَمُ

لُبْنَانُ "قِبْلَتُهُ"، الْأَمْجَادُ شِرْعَتُهُ
وَالْمَكْرُمَاتُ... إِلَيْهِ تَشْخَصُ الذُّمُّ،
مَنْ قَالَ مَيِّتْ؟ فَمَا الْأَمْوَاتُ إِلَّا هُنَا...
مَا زَالَ يَرْمُقُنَا، فَاعْرُبْ يَهَا الْعَدَمُ،
هَذَا الَّذِي غَابَ حَيٌّ فِي ضَمَائِرِنَا،
وَهُوَ الْخِتَامُ لِأَهْلِ الْفِكْرِ إِنْ خُتِمُوا...

مروان حماده وزير الاقتصاد والتجارة

إنّ لشرف عظيم لي أن أدعى إلى هنا في رحاب هذا الصرح العلمي الكبير، في دير القمر الحبيبة، بين أهلي وأحبائي لأتحدث ببضع كلمات عن رجل كبير من قياس العمالقة، اسمه فؤاد افرام البستاني. فعندما شرفني أخي وصديقي حارث، بالدعوة إلى إلقاء كلمة في المناسبة، لم أتردد لحظة واحدة. ولم يكن ذلك بدافع من الواجب تجاه من أحبّ، ولا لغاية محسوبة، وإنما لسببين اثنين:

العاطفة التي تجمعني بالبيت، يا ابن العمّ، يا حارث، وهي عاطفة البعقلينيّ تجاه الديريّ، عاطفة الشوفيّ تجاه الشوفيّ، وعاطفة التواصل والمحبة الضاربتين في التاريخ... تاريخ العائلتين وتاريخ المنطقة وتاريخ لبنان، فكان شعوري أنني إنّما أتحدث عمّا يخصني مباشرة، وعمّا يثير فيّ مشاعر الاعتزاز.

أمّا السبب الثاني في مسارعتي إلى القبول، فكان بدافع الرغبة في التأكيد على أنّ ما خلفه فؤاد افرام البستاني لنا ولوطننا ولأمتنا، نعم لأمتنا العربية، من ثروة فكرية، ومخزون ثقافيّ، وعلوم رفيعة - ما خلفه لنا - طغى على طبع الشخص الرجل، ومنحه إجازة لأن يكون فعلاً رجل عصره، ورجل إنسانية يتخطى الحدود والحواجز، وقضى على رواسب المراحل الصعبة التي مرّ فيها لبنان. فقد كان فؤاد افرام البستاني القيمة الانسانية والثقافية الكونية، أكبر وأبقى. وكان في جذوره الأصيلة، وفي انتمائه الثقافيّ العربيّ أقوى من المحن

والخلافات. فقد عاد فؤاد افرام البستاني إلى الأصول التي لم يغادرها يوماً، إلى البلدة الحبيبة، إلى الجبل العزيز، إلى العروبة الحضارة والثقافة والانتماء. ففي النهاية، كلنا يعود إلى الأصول، وإلى ينبوع، وهي واحدة لا تتجزأ، وغراها لا تنفصم.

سيداتني سادتي

أيها الحفل الكريم

لم يكن فؤاد افرام البستاني الرجل الموسوعي، في أيّ وقت من الأوقات، ملكاً لعائلة شأنه في ذلك شأن البساتنة الكبار، ولا هو كان ملكاً لمنطقة، ولم تصادره طائفة، ولا حتى جبهة، لأنّ الموسوعيّ كان وسّع دائرة معارفه وعارفه، والمعجبين به، والمتلقّنين على يديه ومنه، إلى ما هو أبعد وأسمى من سجون الانتماءات الضيقة التي أراد البعض زجّه فيها، وتحجيمه عبرها. ما من شكّ في أنّ الحديث عن فؤاد افرام البستاني يطول كثيراً. وما من شكّ في أنّ الحديث عن فؤاد افرام البستاني يتشعب كثيراً؛ يغوص في أعماق نفوسنا، وفي صلب ضمائرنا، وقلوبنا، ويرتبط بقرابتنا؛ أليس كذلك يا أولاد العم؟ ويتقاطع مع نقاط التقائنا، ومفاصل خلافتنا... لقاءنا دائماً حول الشخص، ولو كان اختلافنا أحياناً حول مواقفه. ونحن اليوم في دير القمر الحبيبة، جارة القمر، وجارتنا نحن، لا لنقوم عملاقاً، ولا لنقيس حجماً، ولا لنزن إبداعاً، ولا مكانة. فالعملاق هو هو، والحجم هو هو، والابداع والمكانة هما موضع إجماع الجبل، وإعجاب لبنان، واعتزاز العرب. فهو ليس في حاجة لأن ينتزع منّا اعترافاً بتفوّقه. لقد كان فؤاد افرام البستاني، ولا يزال بعد رحيله، مدرسة للأجيال في المعرفة، والصلابة، والجدية، وفي تجاوز الزمان والمكان.

أيها الحفل الكريم،

ما من شك في أن ثمة كثيرين ممن هم أكثر أهلية مني للتبحر في شخصيته، وفي دراسة نتاجه الفكري الكبير والمتنوع والغني. ولكنني أردت أن أغتنم الفرصة لكي أحاول أن ألقى بعض الضوء على الصورة التي عكسها الراحل في أوساط لم تكن بالضرورة على تواصل إيجابي مع مواقفه، ولا سيما في مرحلة الحروب التي عصفت بلبنان. وأردت أن أقول إن الرجل كان بالنسبة إلى الذين اختلفوا معه حول مواقف له أنهم ما من مرة إلا واعترفوا له بالمكانة السامية بين الناس والعلماء. وما من مرة حاولوا أن ينتقصوا ولو ذرة واحدة من قيمته. فقد ظل فؤاد افرام البستاني بالنسبة إلى الجميع مصدراً أساسياً في التحصيل العلمي، وفي المعرفة، وفي الاجتهاد في الثقافة والفكر السياسي، والتاريخ والنقد الأدبي. ومن هنا، فإن السياسة التي لا تحتل إجماعاً، لم تهزّ الاجماع حول عقله، وعلمه، واجتهاده، ونتاجه. هكذا نظر الكثيرون إلى العملاق بما يتجاوز المرحلية والآنية. فقد علمنا، هو، احترام الرأي الآخر، فالعودة ليست جغرافية بقدر ما هي نفسية. مهم أن نعود إلى القرية، ولكن الأهم أن نعود إلى الذات ثم بعضنا إلى بعض.

سيداتي سادتي

أيها الحفل الكريم

لقد كان فؤاد افرام البستاني عالماً من أعلام الفكر والأدب والتاريخ. كان ذلك باعتراف أقرانه من المحيط إلى الخليج. وكان الرجل عالماً، دارساً، متبحراً، ومتفانياً في سبيل العلم والمعرفة. هذا أمر أجمع عليه الناس.

ولكنّ فؤاد افرام البستاني لم يكن فقط رجل الروائع، ولا رجل دائرة المعارف، ولا الأستاذ الجامعيّ، وإنّما كان على صلة بالحياة السياسيّة في وطنه. هذا الجانب من فؤاد افرام البستاني واكبته، ولكن من الجانب الآخر من المسرح السياسيّ في أصعب الظروف التي مرّت بلبنان. ولذلك، أردت أن أقول لكم هنا، من على هذا المنبر الكبير، أنّي بقيت أتوسّم في صورة العملاق فؤاد افرام البستاني صورة العالم، المفكّر، المؤرّخ، الموسوعيّ، والانسانيّ. كبير من هذه الدوحة الكريمة، وكبير من الدير الحبيبة، وكبير من الشوف القلب النابض، وكبير من لبنان الرسالة، وكبير من كبار العرب حضارة وثقافة.

هذا هو فؤاد افرام البستاني الموسوعيّ، الانسانيّ، الشامل كما يراه مروان حماده، كما يحترمه وكما يحبه.

عصام كرم

نقيب سابق للمحاميين

ارتقى من واحة المثقف إلى رتبة العارف

ما قسط لي أن أكون تلميذاً في مدرسة علم بها فؤاد افرام البستاني.
ولكن، مَنْ قال إنَّ المدرسة هي دار يربح فيها تلاميذ بمقاعد يستمعون معلماً
يكرز عليهم بالمعرفة؟

المدرسة أكبر بكثير. والمعلم.

المسيحية مدرسة ويسوع المسيح معلم. والإسلام مدرسة ومحمد بن عبد الله
ابن عبد المطلب معلم.

وإذا نزلنا من مدارس السماء إلى مدارس الأرض... مدارس الأدب... قلنا
إنَّ الاقتعاد مدرسة وأبو حيّان معلم. والمذهب الشاميّ مدرسة وديك الجنّ
معلم. والكلاسيكية مدرسة وبيار كورناي وجان راسين معلم. والرومانطيقية
مدرسة ولامرتين وشاتوبريان معلم. والرمزية مدرسة وستيفان مالارمي معلم.
والسوريالية مدرسة وأندري بروتون معلم.

فؤاد افرام البستاني... تلميذ المعلم نغوم... ابن النهضة الثانية... أطلّ على
الينابيع إطلالة الطّمّاح المتعافي. فأقبل عليها يعلّ وينهل ولا يرتوي حتّى
اخضلت المناهل بمواهة الأصلاء... وحتى استوى، هو، فؤاد افرام، في
المطلع البهيّ من الأمداء الفساح.

هذا المثقف بلا حدود... تملأ من ثقافته، وهضمها، وارتقى بها من مدارج الثقافة إلى مراتب المعرفة... حتى بات عصياً على أن يعرف به بـ "الروائع" في أدب العرب وبـ "دائرة المعارف" يحاول إكمالها لعله يتجاوز عبارة "عثمانية"... العبارة التي وقف عندها نسيب ونجيب إنا المعلم بطرس مع سليمان البستاني.

المدى الأرحب كان مداه. والأفق الأوسع كان ملعبه... حتى بات أشمل بكثير من أن يختصر بكتاب ألفه، أو عبر موسوعة توفّر عليها... مثلما لا يختصر فيكتور هوغو بأنه صار خطيب اليسار، ولا إميل زولا بأنه صاحب "إنّي أتهم". هذا العارف، العارف من العطايا، كان السنين السّمان تتدارك السنين العجاف عند الطالبين.

مرّة، وكنت طلعت حديثاً من قراءة أرتور كونت عن "المغامرة الأوروبية من مينوس حتى لويس السادس عشر"، سألته: لماذا، في رأيك، بنى قسطنطين، القسطنطينيّة حيث ابتناها؟ فأجاب لا يتردد: لأنّه شاء أن يَبقي الصّلة قائمة بين البحر المتوسّط والبحر الأسود.

ولو كان بقي في الحياة، كان قال، ربّما، إنّ "الشرق الأوسط الكبير" كان رؤية بريطانيّة في مطلع الثلاثينات من القرن العشرين. وكان تساءل، ربّما، هل يكون "المحافظون الجدد" في رؤيتهم إلى هذا الشرق، وارثين وضحايا لأوهام بريطانيي العقد الثالث من القرن العشرين؟

وكان، هذا العارف، صاحب نكتة قارسة، موجهة، لا تطلع إلا من لدن الأذكاء المرهفين.

ذهب، يوماً، يزور كميل شمعون. فقلّمت إليه القهوة. فشرب يحدث صوتاً
إذ يضع حرف الفنجان بين شفتيه. فاستغرب كميل شمعون: يا فؤاد، هل
ناس أنت أنني رئيس الجمهورية، فتشرب القهوة عندي على هذا الشكل؟
فضحك. وأجاب: لا. ما نسيت أنني في زيارة رئيس البلاد. لكنني ما نسيت
كذلك أنني أتقن لغة الضاد. العرب، يا فخامة الرئيس، ما قالوا "شرب"
القهوة. بل قالوا "رشف" القهوة.

وبوماً، ذهب على موعد مع كميل شمعون بعد عهده بالرئاسة. فاستقبلته
سكرتيرة بشعة وعلى قدر قليل من الفهم. فقالت: "اعتذر عن فخامة الرئيس.
وصل متأخراً من غداء دُعي إليه. خمس دقائق ويكون في استقبالك. كيف
تشرب قهوتك؟" فالتفت إلى وجهها وقال: "اعملها مثل وجهك". فارتبكت.
ولم تترك. وفيما هي على هذه الحال، أطل كميل شمعون. فألغاها على لبكتها.
فسألها: "ماذا قال لك؟" قالت: سألته كيف يشرب قهوته؟ فقال: "اعملها مثل
وجهك". فابتسم. وقال لها: "اذهبي واعملها مرة... مثل لسانه".

لَکَم کان يعرف هذا العارف

کان يعرف دور دير القمر في حکم جبل لبنان، وهي، منذ الإمارة، عاصمة
الجبل.

وكان يعرف أن الحكم استوى في ناديها وانطلق من ناديها، وأن القرار... هي
مقتعده. أوليس هذا ما كان في الخمسينات من القرن الماضي؟

ويا دير القمر

يا عاصمة الأمراء ومُطلقة الطلائع

يا من رفعت شهادة الدم إلى مصافّ الشهادة للحقّ الوطني وللوفاق الوطني!

يا مَنْ أَحَبَّتْ الرهبانيّة المريميّة حتى صار أبناؤها كلّهم من رهابينها!

يا مَنْ ترتفع على الحساسيات تُطلّعها المواسم والمناسبات لتتركّز في المناخات الراقية تعالج، انطلاقاً منها، الشأن الكبير... فتفتدي وحدة الوطن... وترفض "ثقافة الموت"، كما في مقال البابا يوحنا بولس الثاني، ومعه البطريرك المارونيّ مار نصرالله بطرس صفير، لأنّ فيها الانتقال السريع من سلاح اللغة إلى لغة السلاح...

يا دير القمر!

يا بنت الأصالة الشوفيّة!

يا منبت الغرّ الميامين!

قولي لهم إنّ الأوطان لا تُبنى برّدات الفعل. وإنّ عقلي الغبن والخوف عطّلتا القرار اللبنانيّ منذ الإمارة... وما تزالان منذ سنة ١٩٤٣ ... فلا يجوز أن يخاف المسيحيّ. ولا أن يُغبّن المسلم. هكذا كانت حالنا... فصارت، والعقدتان تعايشان النفسيّة المسيحيّة في هذا الزمان...

قولي لأهلنا المسلمين: لا تخطئوا مثلما أخطأنا، فتقابلوا الخطأ بالخطأ. لأنّ ما بالأخطاء يكون تدارك الأخطاء. ولا بالأخطاء تكون الكفّارات عن الخطايا.

كلّنا أبناء لبنان. وكلّنا أبناء الحرية والديموقراطيّة وحقوق الإنسان في تقرير مصيره رافضاً عاصفة الإرهاب، متحرّراً من الأحاديّة... انطلاقاً من لبنان وصولاً إلى القدس وبغداد، ومن ثمّ إلى كلّ مصر يعايش توقاً إلى الهواء الطلق وصبوةً إلى التنفّس بملء الرئتين!

ويا دير القمر

من لنا، مثل فؤاد افرام، بمن يتابع المسيرة، فتكون لنا بحور تحتوي التراث
الفخم روائع ودائرات معارف تُحكى فيها حكاية العرب في معاجم الغرب
كمثل ما تُحكى حكاية الغرب في معاجم العرب؟

بعد ١١ أيلول، قيل في مواطن كثيرة: كلنا أميركيون!

وبعد ١١ آذار، قيل في المواطن نفسها: كلنا إسبانيون!

فمتى يقال في تلك المواطن إياها "كلنا لبنانيون" ... "كلنا عرب" ... وقد
افتدحنا، في لبنان وفي فلسطين وفي العراق، بما هو أشدّ وأدهى من ١١
أيلول ومن ١١ آذار؟

الإرهاب تعولم. فهل تتعولم العدالة والمحبة؟

ويا دير القمر

أنت والفخر نظيران!

فاخرت بأنك أطلعتهم. وفانجروا الدنيا بأنهم طلوعوا منك!

الأ... نغم الأمومة ونغم البنوة.

هكذا تتلاقى المآثر ويتعانق الأنداد!

... ويا فؤاد افرام!

أرايت كم تعلّمت منك وكم أخذت عنك؟

والله! ما تكريم، في منويتك، مهما غلا، بكثير عليك!

د. حارث البستاني

كرّس حياته بكاملها للبحث والدراسة والتأليف والتربية. عمِلَ جاهداً حتى آخر رَمَقٍ لتنشئة الشباب اللبناني. ناضل بدون هوادة في سبيل سيادة لبنان وإعلاء شأنه، وغادرنا صبيحة يوم باكٍ ومصقع. شيخ جليل هوى لينضم إلى قافلة عظماء القرون الغابرة.

كان جليل الجبل ينتمي إلى سلالة ملوك الآداب العربية والإسلامية. يعمل، بعد أن تحرّر من التزاماته الجامعية، على إعادة صياغة وإنجاز مخطوطاته التي تجاوزت بالعدد مؤلفاته المنشورة.

حياته، بحث دائم عن المعرفة الأصيلة والشفافية المطلقة وعظمة لبنان، حتى وصلت به إلى عتبة الموت المشرق المؤذن بروية الخالق.

لم يُغلق باباً يوماً أمام طارق، أشيخاً كان أم فتياً. يستقبل الجميع بوجه بشوش ويضفي إليهم. فكل رأي بالنسبة إليه جدير بأن يؤخذ بعين الاعتبار، ولم يبخل يوماً بإعطاء فكرة أو بتوجيه نصيحة لطالها.

كان فضولة المسكوني، وسعة معرفته وعشقه للبنان ثالوثاً يضيف على صوته نبرة خاصة، فتأتي كلماته في هذه المواضع رنانة ومصقولة.

وإذا بالذكريات تعود به إلى أيام طفولته، إلى هذه "المرّة الأولى" التي كانت تستنبط من صميم قلبه أصوله القروية والعائلية، ولطالما كانت موضوع فخره واعتزازه.

كان هذا اللبناني العتيق يستذكرُ فصلاً معيّنةً من حياته الخاصة أو المهنية، فيستعيد بلا تردّدٍ أحداثاً ووجوهاً غيّرت الزمان ملامحها، وقد عايش هذا الامتزاج الرائع بين الإنسان والوطن الذي أضفى على أعماله هذا الرونق الفريد الذي قلّما نراه اليوم في معاصرنا.

اندلعت الحرب، فسلبت عشرين سنةً من حياته. بقيَ وفيّاً لحبّ الوطن مهما كلفت الأمر، جسوراً، واثقاً بنفسه ومرتفعاً عن كلّ المغريات، بعيداً عن التودّد والمجاملة والمؤامرات والنفاق؛ فكان شاهداً مرغماً يوم ضاقت مقاليد الوطن، فرحل وفي قلبه حسرة: عظمة لبنان المنهارة.

خلّت كلّ مؤلفاته ومحاضراته ومقالاته من المآرب السياسية والطمع بالسلطة. إنّما حفلت "يومياته" بالمقاطع الساخرة اللاذعة وهو يسرّد وقائع الحرب التي شنت على لبنان. فسلبت الأضواء على الأيدي الخفية وعلى أطماع ونفاق الغرباء وعلى بعض القادة الذين لم يستخلصوا مع الأسف أية عبرة منها.

كما شجّب بعنف فساد النظام السياسي وتدهور الأخلاق العامة والمشاعر بغضب أنبياء السنين الغابرة، من دون أن يحصل على أية ردّة فعلٍ من الساسة والسياسيين. فالصقت به أبشعُ التهم والنعوتات من قبل أعداء لبنان ما عدا تهمة الانهزامية.

وشجّب حكم الذمى وفساد القادة المتكئين على أكتاف الغرباء من كل صوب، فنادى جليل الجبل بفضائل الأمة العريقة، فلم يمثل أحد.

تميّزت ريشته بالظرفِ حتى عندما كان يغمسها في حبرِ المأساة والمعاناة،
وقد أنتجت شهادةً قاسيةً نابضةً بالحياة حينَ خيمَ الموتُ الأخلاقيُّ على
لبنان.

انفردت كتاباته السياسية بالدهشة والسخرية والاشمئزاز والإعجاب في آن،
وقد اكتظت بالكلمات المتجذرة في نسيج اللغة، فقرأها الناس بالانفعالِ نفسه
لأنها ولدت منه.

جاءت هذه الأعمال تبرز رفضَ مؤلفها المشاركة في أكبرِ عمليةٍ انحطاطٍ
لشعبنا؛ إنما هذا الرفضُ لا يجوزُ أن يبررَ دفنَ كتاباته معه.

أقيمت له جنازةٌ وطنيةٌ بتاريخ ٢ شباط ١٩٩٤ في دير القمر، وكان يوماً
ممطراً وبارداً يلفه الضباب، فخيمَ سكونٌ حزينٌ ووجومٌ على عاصمةِ الأمراءِ
وأدركَ الجميعُ أنَّ صفحةً مجيدةً من تاريخِ لبنان قد طويت، مستعبدين
بالذاكرةِ السنواتِ المأسويةِ التي عايشوها، فشعروا بأنَّ جزءاً من حياتهم قد
ضاعَ إلى الأبد.

تميّزت المراسمُ الدينيةُ بالخشوعِ والوقارِ على بساطتها. واستمعَ الرسميونُ
والعامّةُ إلى الرقيمِ البطريكيِّ الذي عكسَ حقيقةً تاريخيةً ساطعةً.

فالرجلُ الذي كان مُسجّىً أمامنا قد خطَّ للشعبِ اللبنانيِّ الطريقَ المؤدّيَ إلى
الشرفِ والعنفوانِ، والذي غالباً ما يكونُ ثمناً أعلى من ثمنِ النصرِ من وجهةِ
التاريخِ والقرونِ المتراكمة. هذا الرجلُ اقترنَ شخصه بتاريخِ لبنانِ المستقلِّ
وبمصيره.

في ذلك اليوم من أيام الشتاء المكفهر عاد هذا السيّد الكبير والمفكر المثقل بالسنين إلى أرض أجداده، أرض السلام والحرية والتناغم؛ فاحتل مساحة صغيرة من أرض لبنان حيث يستطيع أن يرقد ويرتاح بعيداً عن ضوضاء هذا الوطن المتألم من جرّاء الحروب القذرة، في هذه البلدة التي عاش فيها وسنط التاريخ ومخطوطاته ومن الصعب الفصل بينهما، إذ ساهم كل منهما منذ أكثر من تسعين عاماً في صنّع وصياغة تاريخ الآخر.

كان وقع الاضطرابات السياسية والثقافية كثير التأثير في حياته، إنّما أثر البقاء بعيداً عن هؤلاء الذين يحرفون كتابة التاريخ كما يحلو لهم ويتناسون الحقيقة. وبالرغم من مساهمته في صنع تاريخ وطنه لم يند أي استعداد لمزاولة السياسة، لا سيّما هذا النوع من السياسة. حينما نسترجع بالذاكرة ونفكر ملياً بالمحن التي أصابت شعب لبنان والتي ما زالت تلاحقه، لا يسعنا إلا أن ننحني احتراماً أمام رجل عاش حرّاً طوال حياته، ورفض كلّ الضغوطات والعروض المغرية التي كانت تحاول الالتفاف على عنفوانه من كلّ حذب وصوب، من الدّاخل ومن الخارج. هذا الرجل سوف يبقى اسمه منقوشاً بحروف من ذهب في سجلات التاريخ كوميض نور مشع في هذا الزمن الرديء والمظلم، وكدليل ساطع على انتصار الإيمان والحق.

عالج تاريخ لبنان كما يعالج مسألة عائلية لمعرفة الوثيقة بكل ما هو لبناني، وبسبب تعلّقه بالقيم الأخلاقية التي لم تعد متداولة. وقد تعايش بصعوبة مع نهاية الألفية الثانية التي أصبح يُفسّر فيها التلوّيح بالعلم اللبناني خلال مظاهرة شعبية بمثابة عمل تحريضي.

إنَّ أسطورةً مكوّنةً من حنينٍ إلى عالمٍ طُوِّيتْ صفحاتُهُ المشرقةُ ليحلَّ محلُّه زمنُ الحربِ والاحتلالِ، ومن أملٍ متجنِّدٍ في كلِّ حواسِّه لطالما أرادَ أن يَبْثُثَهُ في الأجيالِ الصاعدة.

لقد أسدلَ الستارُ. لن يعودَ جليلُ الجبلِ إلى ليوانِه. ولم يبقَ لنا إلا أن نتغنَّى ببعضِ الأبياتِ الشعريةِ الرنانةِ. لقد انتهى عصرُ العمالقةِ.

يقول المستشرق جيرار تروبو: "ليس من الصدقِ أن يكونَ مؤلِّفٌ وناشرٌ "مجموعة الروائع" وموسوعة "دائرة المعارف" الضخمة من الطائفة المارونية. فهو بالفعل وريثُ سلالة متواصلةٍ من العلماء الموارنة الذين عملوا بجهدٍ كبيرٍ منذ القرن السابع عشر على نشرِ الثقافةِ العربيةِ، المسيحيةِ منها والإسلاميةِ، في بلاد الغرب".

ذكريات

المشاركون: النقيب محمد البعلبكي

د. البير ساره

هنري زغيب



محمد البعلبكي

نقيب الصحافة

للتكريات معه طعمُ الحنين إلى تلك الأيام، بما كان لها علينا وما كان لنا عليها من أحداث تجعل تلك المرحلة من تاريخ لبنان عابقة بما نتمناه يعود، لو يعود، بكل ما كان فيه من طيبة وبركة وبيادر عافية.

كنا في المقاصد، وكان على الضفة الأخرى من التفكير الوطني الواحد، شخصٌ مثيرٌ للجدل، يحترمه أخصام تفكيره بقدر ما يحترمه مريدوه، وهو بين الفريقين عالمٌ جلودٌ، وبحاثةٌ طلعةٌ، يرفد معهد الآداب الشرقية في الجامعة اليسوعية، ويرفد مجلة "المشرق"، ويرفد الشباب المُطَلِّبين عليه من واسع علمه وغزير معرفته.

وكان هو يبقى على قناعاته، راسخاً في معتقده العلمي والتاريخي والأدبي، موسوعة من رحابة قولٍ وساعة بثٍّ، قلمه طاقة لا تتعب، وفكره دنيا من آفاق وساعٍ، وما يقوله، ولو أثار جدلاً، يظل مرجعاً إليه يُعاد.

أذكرها تلك الأيام، وأذكر كم نهلنا من "الروائع" مادةً مدرسية لم تكن ضمن برامجنا المدرسية، لكنها كانت ضرورةً لها ولنا في اكتناز ما كان علينا أن نعرفه من ذخائر الأدب العربي.

وجاءت "دائرة المعارف"، يكمل بها العمل الجبار الذي بدأه البستاني الأول، البطرس الكبير، فإذا به يوليها من وقته وجته ما يعجز عنه فريق كامل من الباحثين.

وحيث كنّا نتحلّق حوله في جلساته وحلقاته، كان يمدّنا بالوفير الغنيّ من الأدب والتاريخ والفكر، حتّى لكانّ الجلوس إليه حجّاً إلى واحدٍ من أئمّة الأيام الخوالي.

ذات يوم، وكان في زيارة صديقه القاضي بولس سلامة في رحلة، عرفه القاضي سلامة، وكان شاعراً كذلك، بشاعر فتى في رحلة تقدّم من الأستاذ فؤاد بثقةٍ وشموخ. طلب الأستاذ فؤاد أن يُسمعه الفتى شعراً، ففعل الفتى. سأل الأستاذ فؤاد: "وهل عندك الكثير من هذه القصائد؟". أجاب الفتى: "عندي مجموعة كاملة، وعندي مسرحيّة شعريّة جاهزة". طلب الأستاذ فؤاد أن يراها، فأرسلها إليه الفتى الزحليّ بالبريد. وحيث قرأها الأستاذ فؤاد وأعجبته، أشركها في مسابقة الجمعية الأدبيّة يومها، ففازت المسرحيّة بالجائزة الأولى، ونشرها الأستاذ فؤاد في مجلّة "المشرق"، فاشتهرت واشتهر صاحبها من يومها، ولا يزال صاحبها حتّى اليوم يعترف بفضل الأستاذ فؤاد أفرام البستاني عليه.

تلك المسرحيّة كانت "بنت يفتاح"، وذاك الفتى الزحليّ هو سعيد عقل.

وما أكثر الـ "يفتاحات" التي اكتشفها الأستاذ فؤاد وما أكثر الذين، مثل سعيد عقل، أضاء على مواهبهم واحتضنها، أستاذاً ومرشداً وراعي جيلٍ كامل من الأدباء الذين يدينون، مثل سعيد عقل، بما رفدهم به ذاك الموسوعيّ الكبير.

في مثويّته اليوم، ننحني لذكراه، كي نشعر أنّنا لا نزال هناك، في تلك المرحلة المضنيّة العافية، العابقة بما نتمنّاه يعود، لو يعود، بكلّ ما كان فيه من طيبة وبركةٍ وبيادر عافية من أيّام لبنان.

وحين كان على رأس الجامعة اللبنانية، وكُنّا إليه نَجلس، وبه نَجتمع، ومنه نَطَّلِع، كان في عزّ زخمه وحماسه لإنشاء جيل لبنانيّ جديد راغب في العلم، ضالع في الآداب على صورة الجيل الذي منه خرج هو، جيل الكتاب والمعرفة الحقّة.

قلّما أعرف من ليس له معه حكاية أو فصل أو حدث، ذاك الذي في إثارته الجدل حوله، ظلّ كالكهنة الأغارقة القدماء، يَخْتَلِف الناس إليهم ولو اختلفوا عليهم.

فؤاد افرام الهستاني، هذا الموسوعيّ الذي نَحْتَفِي بِمَثَوِيَّتِهِ اليوم، يقيناً لو أمدّ الله بعمره، وعُمِّر إلى المئة أو نحوها، كما نشهد من بعض أترابه، لكان لا يزال في التأليف والبحث والقراءة والتعليم الذي امتهنه رسالة لا حرفة، فإذا بطلابه يغدون اليوم أساتذة ومؤلفين وذوي شأن عالٍ في بناء لبنان.

ومن ذكرياتي عنه، أنّي كلّما كنت أقصده إلى الجامعة اليسوعية حيث يدرّس في معهد الآداب الشرقيّة، أو إلى الجامعة اللبنانية حيث كان الرئيس في فترة التأسيس، كان دائماً هو هو في الرحابة والبشاشة، وفي الفرح الرائع باستقبال من يقصده لغرض علميٍّ أو مطلب أكاديميٍّ، ليقينه بأنّ لبنان الحقيقي لا يمكن أن يقوم إلاّ على متانة الذين يقاربونه بالعلم والفكر والوعي الحضاريّ.

ومثلما كنا نغرف من روائعه في مطلع شبابنا المقاصديّ، ونتابع ما تثيره آراؤه من جدل حولنا، كذلك كنّا نغرف من بحرهِ الواسع، هو الذي يعطي ولا منّة، ويسخو بلا حساب، ما سوى ليبقى في لبنان من يكمل رسالة لبنان الحضاريّة.

Dr. Albert Sarah

Fouad Boustany

Trois initiales fascinantes, que nous connaissions dès nos années de collège. J'étais entré chez les Pères Jésuites, interne dans la Division des Petits, et déjà nous avions remarqué cet élève de Philosophie qui, dans les grandes circonstances, était chargé de lire un texte au nom de tout le collège.

Lors des proclamations générales dans la Salle des Fêtes, le nom de Fouad Boustany revenait le plus souvent, car il fauchait toutes les places de premier. Nous avons bientôt appris que, brillant dans toutes les matières même scientifiques, il l'était exceptionnellement en langue Arabe.

Aussi, à la rentrée d'Octobre 1925, alors que nous passions en Cinquième, lui, Fouad Boustany, à peine son diplôme en poche, était nommé professeur de la classe de Seconde Arabe, c'est-à-dire professeur de ses propres camarades de la veille.... Ces grands garçons allaient-ils continuer à tutoyer leur professeur-camarade? Essayez de vous rappeler les coutumes de l'époque, où la familiarité n'était pas courante... Or, ces gars ont su concilier le protocole et l'amitié en lui trouvant spontanément l'appellation de "Eustaz", le tutoiement étant réservé pour l'extérieur. Et bientôt le nom de "Eustaz", comportant une nuance d'amitié et même d'affection, devint l'apanage exclusif du jeune professeur. Au collège il n'y avait pas d'autre Eustaz que lui. De sorte que nous-mêmes ses amis, arrivés à l'âge adulte, parlant de lui, nous continuions à la désigner par "Eustaz", même en son absence.

Je reviens aux années de collège:

A la division des Moyens, nous avions l'occasion d'apercevoir souvent Eustaz, car il logeait au pavillon des professeurs et donc était interne comme nous. Sociable de nature et pédagogue inné, s'il rencontrait un élève traversant une cour, il s'arrêtait volontiers pour faire connaissance et échanger quelques propos. De sorte qu'à la rentrée d'Octobre, lorsqu'il prenait en charge ses nouveaux élèves, il les connaissait déjà tous. Quel rare avantage pour lui et pour eux!

Je fus un privilégié qui, dès la classe de 3ème, étais appelé par lui pendant des moments libres et profitais d'un entretien qui était à la fois détente et enrichissement. Les sujets les plus variés étaient abordés, de façon si naturelle de sa part, que je ne songeais même pas à le remercier pour le temps qu'il m'avait consacré.

La classe d'Arabe qui, jusque là, avait été un moment plutôt aride, devint en Seconde une heure de plénitude pour nous tous, où l'on se sentait par le temps passer, une heure que même un élève paresseux n'aurait pas voulu manquer.

Nous apprîmes incidemment que notre Eustaz, travaillant en équipe avec monsieur Bounoure conseiller culturel du Haut-Commissariat, était en train de mettre la dernière main au programme du Baccalauréat Libanais encore inexistant. Ce travail capital effectué dans la discrétion et achevé pendant notre année de seconde, aboutit à l'institution du Baccalauréat Libanais. Il était naturel que son principal artisan fût le professeur de "la classe du Bac".

Or nous, la classe de Seconde, fûmes les premiers bénéficiaires de cet événement historique, car notre Eustaz dut "monter de classe" avec nous et rester notre professeur de Première.

Ainsi, notre promotion eut cette chance vraiment unique dans les annales: avoir, pendant deux années de suite, le professeur exceptionnel qu'est Fouad Boustany. En même temps que professeur d'arabe, il nous ouvrait à la culture universelle:

Qui pourrait croire qu'il nous a parlé de Nietzsche (*Ainsi parlait Zarathoustra*), dont nous n'avions même pas entendu le nom? Il nous a donné à traduire en arabe le poème de Kipling inconnu de nous, mais bientôt de plus en plus célèbre dans le monde

Si tu peux voir détruit l'ouvrage de ta vie

Et, sans dire un seul mot, te mettre à rebâtir

Ou perdre en un seul coup le gain de cent parties

Sans un geste et sans un soupir, etc...

Je m'excuse de me citer en exemple: J'avais toujours été un élève moyen en arabe, et je ne me serais pas cru capable d'atteindre les premières places. Or, avec la pédagogie humaniste de ce merveilleux professeur, j'ai pu, à mon étonnement personnel, arriver même une fois à être premier en Excellence.... Permettez ici une réflexion que j'ai formulée une fois que j'ai eu moi-même l'expérience de l'enseignement: il n'y a pas de mauvais élèves; il y a de mauvais professeurs, même s'ils sont pleins de science.

Que dire, alors, du grand éducateur que fut notre héros?

Je laisse à d'autres le soin de vous parler de l'œuvre littéraire de Fouad Boustany. Mais je signale seulement que, dès qu'il a passé de la situation d'élève à celle de professeur, il a voulu combler une lacune notoire dans l'enseignement de l'arabe à l'époque: alors qu'en France, la Collection "Classiques pour Tous" de la Librairie Hatier diffusait largement des opuscules bon marché, mettant les trésors des lettres à la portée des élèves, ceux-ci, pour étudier les auteurs arabes, n'avaient aucun imprimé abordable. Ils devaient se débrouiller avec les cours dictés en classe par leurs professeurs.

Fouad Boustany commença donc, dès les années Trente, à publier les célèbres "Rawa'eh" روايع qui connurent un succès considérable, inattendu, et furent happés dans les écoles au Liban et dans de nombreux autres pays. Les Rawa'eh' finirent par être des "Classiques pour Tous", à l'instar de la Collection Hatier. A cet

égard, notre Eustaz fut un vrai novateur dans l'enseignement, et ce n'est pas peu dire que de citer cet exploit parmi ses titres de gloire.

Je mentionne en passant la mémoire prodigieuse dont il était doté. Pour les dates historiques ou celles des auteurs, on avait parfois le souffle coupé de l'entendre, le plus naturellement du monde, citer les moins connues d'entre elles. Mais c'est dans les textes littéraires qu'on était le plus étonné: il déroulait des dizaines de vers des poètes aussi bien classiques que de la période récente, comme Paul Claudel, Charles Péguy ou notre Charles Corm. Dans une réunion où il avait, comme en passant, fait une longue citation de classiques, un ami qui ne le connaissait pas de près me disait, en sortant, combien il en était ébahi. Je lui ai répondu qu'il n'avait vu que peu de choses.

Et que dire de l'homme?

Il était le maître à penser de toute une jeunesse, conquise par son enseignement et par une vie exemplaire, qui était l'illustration de ses principes.

Il avait le culte de la vérité, et disait avec humour qu'il avait fondé la Ligue contre le Mensonge. Il défendait la vérité simplement, sans crispation, étant à l'aise avec ceux qui étaient d'opinion différente ou même opposée. Parfois, par une des boutades dont il avait le secret, il démolissait l'argumentation adverse.

Son humour trouvait sa place dans les occasions les plus diverses, parfois inattendues. Je cite avec émotion un dernier trait qu'il m'a lui-même rapporté: le Président Hraoui avait invité la famille Boustany au palais de Baabda pour conférer à notre héros la distinction du Grand Cordon du Cèdre. En saluant le Président, il lui dit en plaisantant بِكْرْتَمِ بِالتَّابِينَ "Vous y allez un peu tôt pour l'oraison funèbre".

On dirait que, lorsqu'il sortait cette boutade avec le sourire, il avait comme la prémonition d'une fin prochaine. Et c'est effectivement après ce grand jour où un nouvel honneur lui était conféré, que sa

santé commença à décliner. Avec l'angoisse et la douleur de ne rien pouvoir faire, nous avons suivi sa dernière maladie.

Pour moi, je considère que l'une des faveurs notoires dont le Seigneur m'a gratifié, fut, depuis mon adolescence, celle de la riche amitié d'un homme hors du commun.

هنري زغيب

عرفتهُ خمساً حالات بالمعرفة، ولكلٌ مَحطةٍ جناها الوفيرُ من بيلره الكثير.

أولها سنة ١٩٦٦، يوم اطلّبتُ عليه في الجامعة اللبنانية، وكان رئيسها،
ويدرس مادة الشعر الجاهليّ، فكان في الصفّ نضيرُ البثّ والإدلاء، يَشيلُ
الجاهليّ من عصره إلى تقشير قصائد شعرائه، بما يجعلها عماراتٍ شعريّةٍ
عرفنا منه كيف نشبت في زمانها فكانت أسساً لعماراتٍ عليها انبنى فنُّ
الشعر.

وثانيها سنة ١٩٧٨، وكنتُ مهتماً - كما لا أزال - بالياس أبو شبكة نتاجاً
وأضواءً على سيرة، فطلبتُ من اثنين بين أساتذتي في الجامعة: فؤاد افرام
البيستاني وأحمد مكّي أن يشاركا في مهرجان أقمته في القصر البلديّ - زوق
مكايل. ولهبّا فكشفا عن صديقهما الشاعر ملامح من ذكرياتهما أضاءت عليه.
وروى أستاذي البيستاني، بين ما روى، كيف اصطحب سعيد عقل إلى
المستشفى الفرنسيّ وأبو شبكة على سرير الاحتضار الأخير، ما أفرح
الشاعر الشاحب الذي، بعد خمسين عاماً على تلك الزيارة إليه، خلّدها سعيد
عقل في قصيدة الخمسينيّة فقال:

حتّى إذا مضّة الداء، ارتأى ولعاً

أن أستجيبَ لَلْقيا تَفْجُرُ الوَلعاً

ويومذاك ارتدى الثوب الأنيق لكي

يقول: "ها ملكٌ زارا الهنا جُمعاً"

أفضى بها ومضى يحكي، يغوص على

جلال شعري حتى رُدني ولعا

ثالثة المحطّات سنة ١٩٨٠، يوم تسلّمتُ مديريّة البرامج في إذاعة "لبنان الحرّ"، فأنشأتُ برنامجاً سَمَّيْتُهُ "حصاد العمر" سجّلتُ منه أربع حلقاتٍ مع الرئيس شارل حلو، وعشرّاً مع توفيق يوسف عوّاد (نجم عنها لاحقاً كتابه الذي استأذنتني بلطفه الأبويّ أن يعطيه عنوان البرنامج "حصاد العمر"). وحين عرضتُ على أستاذي البستاني تسجيل مذكراته، اقترح عليّ استبدالها ببرنامج يوميّ سَمَّاه "أيّام لبنان"، فكنتُ آنس إلى جلساته تلك، يروي فيها كلُّ يوم ماذا جرى في مثل ذاك اليوم، من أحداثٍ أو محطّاتٍ أو علاماتٍ أعلام، وكم كان مدهشاً في التذكّار، متعة لي وأنا أراقبه تندفع على لسانه المعلومات، لا مدوّنة بل متدفّقة منه ارتجالاً تذكّر، وهو يدفّق معلوماتٍ وأسماءً وتواريخٍ وشهاداتٍ ومعاركٍ ووقائعٍ وأعلاماً وعلاماتٍ وإحصاءاتٍ، ولو أنّي أسمعُه من الإذاعة لا حاضراً تسجيّله الحلقات، لَمّا كنتُ أَصدّق أنه يرتجل بل يقرأ.

رابعة المحطّات سنة ١٩٨٣ حين قصدته مستزيداً من ذكرياته عن الياس أبو شبكة، لتحقيقٍ موسّعٍ كنتُ أعدّه لـ "النهار العربيّ والدوليّ". فلم يَبْخُل، ومدهشاً كان في روايته لي ذكرياتٍ مستفيضةً غيرَ تلك التي كان قالها في مهرجان القصر البلديّ، وكان بها يدفّق سلساً منسقاً منمّقاً، ما يذهل سامعه من بحر ذكرياتٍ لديه يجعله، قبل أيّ سواه، شاهداً على العصر، موسوعيّ المادة والشكل الأنيق.

خامسة المحطات سنة ١٩٨٦، لدى استدعائي من نيويورك لتسلم إدارة البرامج الثقافية في "المؤسسة اللبنانية للإرسال". يومها حظيت بأستاذي البستاني يسجل لدائرة البرامج الثقافية برنامج الأسبوعي "لبنان الدائم"، وأمام الكاميرا هذه المرة، أي بمتعة أكبر لرؤيته، لا لسماعه، يرتجل ستين مُتعت من الدقائق، يروي عن أمجاد لبنان فلا يرتوي منه مُشاهد ولا متابع، يفتح الحلقة الجديدة حيث توقف في ختام الحلقة السابقة، لا قفزة في تاريخ أو اسم أو حادثة أو واقعة، كتاباً مفتوحاً من التاريخ والآداب والحضارة، جعلت لبنان على لسانه وبشخصه راوياً، كشفاً عظيماً لمتبوعي البرنامج، حتى إذا نافت الحلقات على المئة، وضبتها المؤسسة في أشرطة لو اتسع تسويقها لوُفرت على المشاهدين اليوم هذا الفوران من ساعات تلفزيونية على جميع شاشاتنا تنشي جيلنا الجديد على خرعاتٍ وصرعاتٍ وموجاتٍ من الانحطاط الخُلقي والفني والموسيقي والبرامجي التافه الساقط.

١٩٨٨ ندهتني أميركا من جديد فسافرت إليها ست سنواتٍ خصيبة كنت خلالها أستهدي بحيوية أستاذي البستاني لأزداد هناك حيوية وإنتاجاً. وبعد أيام لعودتي النهائية إلى لبنان من المنأى المؤقت على بحيرة الليمون في فلوريدا، كنت ذات يوم من ١٩٩٤ في زيارة الصديق الكبير فاضل سعيد عقل، فسألني أن نزور أستاذنا معاً البستاني في المستشفى وهو في حالة دقيقة. فرحت أن أعود فالتقي أستاذي من جديد، غير أن غرفة العناية الفائقة حالت دون التقائنا إيّاه، فعدنا، الأستاذ فاضل وأنا، وبنا غصة حافية.

بعدها بأيام، كنا نودّع، مع كل لبنان، أستاذنا الذي غاب. وبعدها بأسابيع، وكنت أستاذي من وعكةٍ صحية، اتصل بي الشيخ عبدالله العلايلي يسألني

أن ألقى عنه كلمته في احتفال جامعة سيّدة اللويزة بفؤاد افرام البستاني،
فاعتذر وأغيب عن الاحتفال الذي حفر في الزمان قول سعيد عقل عن
البستاني الكبير:

إن رحت أطريه يُغضي رأسه دَعَةً
كرأس صنّين يهوي، إن هوى، صُعدا
غير أنني، إن أضعتُ فرصتي الأولى في استذكار أستاذي البستاني على منبر
جامعة سيّدة اللويزة، فها هي الجامعة اليوم، بعد عشر سنواتٍ على الأولى،
تدعوني إلى منبرها لاستذكار أستاذي في مثنويته، فألبّي شاكراً متمنياً: أمّا
الشكر فأن تكونَ بادرَت، وأمّا التمني فأن تواصلَ استذكار كبارنا أركان لبنان
الحقيقيّ.

وطوبى لجامعةٍ تكسر طوق المقعد الجامعيّ إلى حفظ الذاكرة.
إنّ ذاكرة الوطن مطلوبةٌ أولاً من المنابر الجامعيّة، تحفظُها موثقةٌ في ذاكرة
الزمان.

جلسة أكاديمية

رئيس الجلسة: د. منصور عيد

المشاركون: د. أحمد أبو حاقة

د. دياب يونس

د. غالب خانم

د. أهيف سنو

NOTRE DAME
UNIVERSITY

جامعة نوتر ديم
تحيي يوم
فؤاد افرام البستاني
ديار القمر ٢٨ - ٢٩ - ٣٠

مع فؤاد بك



د. منصور عيد

ما يمنعنا أن نجعل مدننا وقصورنا وغاباتنا مسارح لأبطال وبطلات رواياتنا الوطنية؟ في كل مقصورة من مقاصير بيت الدين رواية... في كل سرداب من سرايب الأمير بشير رواية... في كل دهليز من دهاليز فخر الدين رواية... تحت كل أرزة من أرزاتنا رواية، وفي كل صفحة من صفحات تاريخنا رواية.. فبلادنا مسرح للروايات واسع، وتاريخنا كنز من الحوادث لا يفنى.

هذا ما قاله فؤاد افرام البستاني الكبير، وهو يخزن في لاوعيه الطفولة التي حاكتها دير القمر، البلدة العريقة في التاريخ، وصقلها قصر بيت الدين أيام ترعرع فيه صبيّاً في كنف أبيه، الضابط المسؤول عن الجبّخانة، مخزن الأسلحة في القصر. بل صقلها تاريخ تروي حكاياته الأروقة والأجنحة والساحات، وصور أميره البشير، وهيبته ووقاره، ونظراته الحادة الثاقبة، وحاجباه المتحديان أغوار المدى، وأصداء صوته المترددة في روايات وأخبار يسمعها الفتى على لسان عمّه يوسف منصور افرام البستاني، أصمعيّ زمنه، وراويّة أخبار المير.

وليلي الشتاء الطويلة المضربة بوهج نار المواقد، تلهب في النفوس حكايات البطولة والفروسيّة، فيكبر الصبيّ محباً للعلم والمعرفة، على ذكاء حادّ، ونبوغ متميّز.

يروي إدوار حنين في مقدّمة كتاب: على عهد الأمير، يقول: إنّهُ يوم كانت حفلة توزيع الجوائز للسنة الجامعيّة النهائيّة في جامعة الآباء اليسوعيين، برز صبيّ من آل البستاني، وقد استأثر بجميع جوائز صفّه، حتّى أنّه لم يعد

يستطيع أن يحمل جوائزه، فهبّ رئيس الجامعة الذي كان يتصدّر الحفل، يساعده على حملها، فصفق لهما الحضور طويلاً، وكان ذلك الصبيّ البستانيّ هو فؤاد افرام.

في الثالثة عشرة من عمره أصدر مجلة "علم الأدب"، وتوالت نشاطاته وإبداعاته في إصدار الكتب: في الرواية والتاريخ والدراسات الأدبية - خصوصاً سلسلة الروائع. ولعلّ نتاجه الفكريّ الموسوعيّ الأهمّ دائرة المعارف التي سدّت فراغاً كبيراً في المكتبة العربيّة. له بحوث ودراسات ومحاضرات كثيرة في التاريخ والأدب. تعلّم الفرنسيّة والتركّيّة والسريانيّة والاطالّيّة والاسبانيّة. شارك في تأسيس معهد الآداب الشرقيّة في الجامعة اليسوعيّة. وتولّى أمانة سرّ اللجنة الوطنيّة للأونسكو منذ تأسيسها عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٥، ثمّ تولّى رئاسة الجامعة اللبنانيّة. أشرف على إصدار وتحرير مجموعة من المجلّات الثقافيّة والأدبيّة. كان عضواً في الأكاديميّة الدوليّة للعلوم السياسيّة في جنيف. شارك في النشاط السياسيّ يوم كان البلد يحترق، متشبّثاً بصلاية إيمانه الوطنيّ، ثمّ راح يطلّ علينا عبر الشاشة الصغيرة راوياً حاذقاً وعميقاً، لبقاً ومبتسماً، حاضر الذهن على طرافة، وكبير في العمر وفي الفكر، غائصاً في التاريخ اللبنانيّ وهويّة لبنان الحضاريّة.

من محاضرة له في الندوة اللبنانيّة يقول: يبرز لبنان من ضباب ما قبل التاريخ في ظلّ شعار مثلث: الايمان بما وراء المادّة، الأخذ بروعة الجمال، السعي في تحقيق الذات. هذا هو ثالث الوجود اللبنانيّ الذي أوجزه قداسة البابا بعبارة: لبنان رسالة.

إنّ جامعة سيّدة اللويزة التي كانت سبّاقة في تكريم فؤاد افرام البستاني بعد وفاته واليوم كذلك في ذكراه العاشرة، أسمح لنفسي، وأنا ابن هذه الجامعة، أن أتمنّى على إدارتها الكريمة أن تطلق مبادرة أدبيّة وفكريّة، وأن تكون السبّاقة أيضاً إلى تأسيس لجنة تكريميّة لهذا الرجل، تشجّع الأبحاث الخاصّة التي تتناول الجوانب الكثيرة من أدب فؤاد افرام البستاني.

ولعلّنا اليوم، في جلسة الأبحاث هذه، نضيء خطوطاً أساسيّة في أدبه وفكره، من خلال ما سيقدمه الباحثون الأصدقاء الذين نشهد لعلمهم وفكرهم ونشكر لهم جهدهم ومشاركتهم.

د. أحمد أبو حاقه

أيها الحفل الكريم

سلام الله عليكم.

وبعد، فإنه يسرني وبشرفني أن يكون حديثي إليكم الآن عن استاذي الكبير
المغفور له الدكتور فؤاد أفرام البستاني.

في شهر تشرين الأول من العام ١٩٤٨، دخلت دار المعلمين والمعلمات،
وكان هو مدير هذه الدار، وأستاذاً فيها، فعرفته لأول مرة عن كثب، وتلمذت
عليه، وبدأت أنهل من معين ثقافته الانسانية الشاملة التي تجمع بين التاريخ
والأدب واللغة والعلم، والفكر والفن، وسائر ما ينطوي عليه معنى الحضارة،
إضافة إلى الأخلاق والذوق وحضور البديهة والذكاء المتوقّد. ولا تسل عن
مدى إعجابي به آنذاك، وإكباري له، حتى غدا مثلاً أعلى لي ولزملائي في
الدار.

ومنذ أن ألقى علينا محاضراته الأولى عن الأدب والفن والجمال والشعر
والنثر والأدب العربي، بدأت أشعر بأن الحظ قد وفقني بأستاذ مميز، بينه
وبين من عرفت من الأساتذة، سابقاً ولاحقاً، بون شاسع، سواء في اللغة
العربية، أو الأدب العربي، أو الثقافة العربية، علماً وفلسفة وحضارة وتاريخاً
وما إلى ذلك، فضلاً عما اختزنه في شخصيته من ثقافات الأمم الأخرى، سعة
وعمقاً وتنوعاً ورقياً.

لست أنسى تلك الدروس الراقية التي كانت تعقد في دار المعلمين والمعلمات، وكان يجود علينا فيها أستاذنا المحبوب بالمعرفة والذوق واللياقة والظرف وحضور البديهة، وحسن الإدارة والمعاملة، وإعطاء المثل الصالح.

لا ريب في أن أساتذة آخرين كانوا يتولّون إعدادنا، ولهم فضل في ذلك لا ينكر لكنّ البستاني كان أبرزهم وأقواهم شخصيّة، وأبعدهم أثراً. أضف إلى ذلك تلك المحاضرات الأسبوعية التي كان يلقيها مساء كلّ خميس في جامعة القديس يوسف، وكان يحضرها المثقفون وطلّاب العلم والمعرفة من مختلف المؤسسات التربويّة والثقافيّة القائمة في داخل بيروت، أو في خارجها، ليتابعوا موضوعاتها التي تدور في معظمها حول الأدب العربيّ، قديمه وحديثه، وفنونه وتاريخه، ناهيك بالمعلومات الغزيرة التي كان يزودنا بها عن المؤسسة الثقافيّة العالميّة "الأونسكو"، التي كان البستاني أبرز اللبنانيين العاملين فيها بنشاط واهتمام وإخلاص.

في تلك المرحلة من مراحل دراستي، تعرّفت على اثنين من أعمال الدكتور فؤاد أفرام البستاني: "الروائع" و"الأدب العربيّ في آثار أعلامه". وكنت قد عرفت من قبل في المرحلة المتوسطة كتابه عن تاريخ لبنان، وقد كان المقرر الذي درسنا فيه تاريخ وطننا دراسة علميّة منظّمة.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أتحدّث عن ذينك العاملين الأكاديميين الجليلين المذكورين أعلاه، ولو بكلمات موجزة. فكتاب الأدب العربيّ في آثار أعلامه، كتاب مدرسيّ منظّم تنظيماً جيّداً، أعدّ خصيصاً ليساعد طلّاب البكالوريا اللبنانيّة في دراسة الأدب العربيّ. هو لم يكن من عمل الدكتور فؤاد البستاني وحده؛ فلقد كان له شريكان في ذلك هما الأستاذ الشيخ خليل تقي

الدين، وواصف البارودي، ولكنّ روحه وتنظيمه وذوقه وخبرته، وبصماته واضحة كلّ الوضوح في هذا الكتاب.

أمّا سلسلة الروائع، فتستحقّ أن يطول عنها الحديث ويتشعّب، لما لها من أهميّة في الدراسات الأكاديميّة الرصينة، في تاريخ الأدب العربيّ ونصوصه وأعلامه. فكلّ جزء كان مخصّصاً لعلم من أعلام الأدب العربيّ، بدءاً بالعصر الجاهليّ، وانتهاءً بعصر النهضة حتى منتصف القرن العشرين. ولربّما كان للعلم الواحد أكثر من جزء، كما هي الحال مع الجاحظ والمتنبيّ، وابن خلدون، وسليمان البستاني وأحمد شوقي، وسواهم. وقد بلغت سلسلة الروائع خمسة وسبعين جزءاً. وهي في الحقيقة روائع، لا من حيث أعمال أعلامها فقط، بل من حيث عمل الدكتور فؤاد أفرام البستاني فيها. فهو عمل تألّفيّ منظم، ودراسات مكثّفة، تضع في خمسين صفحة عن العلم ما يغني عن مئات الصفحات.

في العام ١٩٤٩، عرفت كتاباً آخر من تأليف الدكتور فؤاد البستاني هو: "خمسة أيّام في ربوع الشام". والكتاب من نوع أدب الرحلة، فيه ما يمتع ويثقف ويصقل الذوق في رحلة حقيقيّة قام بها طلاب السنة النهائيّة في دار المعلمين والمعلّمات آنذاك، مع مدير الدار، وكان زمن الرحلة في عطلة عيد الفصح في فصل الربيع. أمّا وجهتها فكانت الأراضي السوريّة الساحليّة والداخليّة، من حدود النهر الكبير إلى طرطوس فأرواد، إلى اللاذقيّة فحلب، إلى المعرة وحماة وحمص، إلى دمشق بطريق النبك ودير عطية. لكنّ الرحلة تعرّضت لعاصفة شديدة، وصعوبات في البحر عند جزيرة أرواد، قاربت الخطر في بعض الأحيان، فاحتجّزت العاصفة أفراد الرحلة، بمن فيهم المدير

والأساتذة مدة يومين، ثم أفرجت عنهم ليكملوا رحلتهم، ما أوحى إلى الدكتور فؤاد البستاني بتأليف كتاب عن تلك الرحلة أسماه: "خمسة أيام في ربوع الشام"، وهو كتاب طريف جداً وممتع، يبلغ مئتين وإحدى وثلاثين صفحة، تنتهي بالفقرة التالية:

"ويؤذن الأصيل بانتهاء الرحلة، فنأوي إلى السيّارة تعبّين، مشتاقين إلى لبنان، وقد طالت هذه الأيام الخمسة، حتّى حسبناها دهرًا، على ما شهدنا فيها، وقاسينا، وأفدنا من العظّات والعبر. ونقطع صامتين وادي القرن، ووادي الحرير، حتّى إذا أطللنا على البقاع العزيز، يزدهي اخضراره في حمرة الغروب، وأطلّت علينا قمم الباروك تناجّي قمم حرمون بآخر الأشعة اللاهثة على بياض الثلوج، أخذتنا غبطة لا واعية، فاندفعنا كمن فم واحد منشدين: كلّنا للوطن.

وبعد ذلك، يذيل الكتاب بفهرسين طويلين: أحدهما يتضمّن الأشخاص والقبائل والشعوب في ثلاث عشرة صفحة، وثانيهما يتضمّن الأماكن والمحالّ والبلدان في تسع صفحات.

"خمسة أيام في ربوع الشام" كتاب طريف جداً وجدير بالقراءة.

وفي العام ١٩٥٠، تخرّجت في دار المعلمين والمعلمات، حاملاً الشهادة التعليمية، والبكالوريا اللبنانية - القسم الثاني. وكنت مضطراً إلى أن يكون تعييني مدرّساً في مدينة بيروت. أقلّه من أجل أن أتابع دراستي الجامعية. وكان التعيين في مدينة بيروت، ولا سيّما لمن هو غير بيروتيّ، من أصعب الأمور وأقربها إلى الاستحالة. ولكن، بصفتي مقرباً منه، ووثقاً بكلمته المسموعة في وزارة التربية الوطنية، طلبت منه أن يساعدني في ذلك، فاتّصل

بمفتش بيروت آنذاك الأستاذ الشاعر نقولا بسترس، وأبلغه رغبته في أن أعين في مدينة بيروت، فكان ذلك، علماً بأنه لم يعين في بيروت من زملائي المتخرجين في تلك السنة أي واحد منهم.

وفي الخامس من كانون الأول عام ١٩٥١، فتحت أول مؤسسة من مؤسسات الجامعة اللبنانية أبوابها، ألا وهي دار المعلمين العليا، التي تحول اسمها فيما بعد إلى معهد المعلمين العالي، بعد أن عين الدكتور فؤاد افرام البستاني رئيساً للجامعة اللبنانية، وأخذ يعمل على تنظيمها، وعلى إعداد النصوص الخاصة بذلك. وطبيعي أن يكون رئيس جامعتنا أستاذاً لنا في قسم اللغة العربية وآدابها. ولكنه كان أستاذاً من نوع خاص، تعرّفنا فيه إبان تلك المرحلة إلى الأستاذ الجامعي الواسع الثقافة، والواسع الاطلاع، والمتعمق في الآداب عامة، وفي الحضارات الانسانية، وبخاصة في الأدب العربي والحضارة العربية، اللذين كان يتولّى تدريسهما آنذاك. وقد ترك بصماته واضحة جداً في ثقافتنا وفي أخلاقنا.

في العام ١٩٥٤، حزت الإجازة التعليمية في اللغة العربية وآدابها، وكان علينا أن نمضي في الجامعة اللبنانية بمعهد المعلمين العالي سنة دراسية إضافية للحصول على شهادة الكفاءة للتعليم الثانوي، وكان منهاج هذه الشهادة ينقسم إلى قسمين: أولهما نظري يتضمّن دراسات في التربية وعلم الاجتماع، وفي بعض المواد المتعلقة باللغة العربية وآدابها، وثانيهما عمليّ قوامه ممارسة التدريس في الصفوف الثانوية. وقد اختارني رحمه الله لأتولّى تدريس الأدب العربي في مدرسة الآباء الكرمليين بدير القمر. وفي إبان تلك السنة تعرّفت على دير القمر وأهلها عن كثب، ونشأت بيني وبينهم صداقات لا تزال

قائمة إلى اليوم، وقد زادت الأيام متانةً وتوطيداً، وزادتني بها اعتزازاً وشدة تمسك. وفي العام ١٩٥٥ تخرجت في الجامعة اللبنانية أستاذاً للتعليم الثانوي. ولكنّ صلتني بها وبرئيسها لم تنقطع - فلقد بقيت أزورها أوقاتاً غير قليلة، إدارة، ومكتبة، وأنشطة ثقافية، ومحاضرات عامة. كما كنت أتولى الإشراف العمليّ على ممارسة التدريس لطلاب الكفاءة للتعليم الثانويّ من الأجيال التي جاءت بعدنا. وفي هذه المرحلة، تعرّفت على بعض الكتب الجديدة للدكتور فؤاد افرام البستاني، منها: النهج الواضح في مبادئ الأدب وفنونه، صدرت طبعته الأولى في العام ١٩٥٣، وهو مخصّص للمرحلة المتوسطة في دراسة الأدب العربيّ. ألّفه بعض الأساتذة بإشراف الدكتور بستاني، متّكئين فيه على سلسلة الروائع، ليكون نموذجاً في التأليف المدرسيّ، عن اللغة العربيّة وآدابها، وهو كتاب مكثّف أيضاً بمعلومات تنمّي معارف التلميذ الأدبيّة، وتصلّ ذائقته الفنيّة، وحسّه اللغويّ، وتدرّبه على الكتابة الأدبيّة السليمة.

ومنها أيضاً "مذكرات رستم باز". وهو كتاب تاريخيّ، حقّق نصوصه الدكتور بستاني، ونشرها مع مقدّمة وحواش وفهارس، يغلب عليها الطابع العلميّ المنظّم. وتتناول هذه المذكرات السنوات العشر الأخيرة التي قضاها الأمير بشير الشهابيّ الثاني في المنفى. و"هي من أغمض الفترات في تاريخ الأمير، وبالتالي في تاريخ لبنان عامّة، كما يقول المؤلّف في مقدّمته. فلا وثائق تحفظ، ولا أسانيد تدوّن، ولا روايات تتناقل، إلّا ما كان من أوامر موجزة رسميّة، وإشارات مقتضبة في التقارير الدبلوماسية، وأوصاف نادرة في أقوال بعض الزوّار. فكان، والحالة هذه، لمذكرات رستم باز الذي رافق الأمير الشهابيّ في منافيه كلّها على كثرتها، وطول أبعادها، ومشقّات مراحلها، أهميّة كبرى،

ولاسيما أن رستم باز كان الخادم الأمين والمستشار الحكيم والعون المخلص للأمير، وكان خير من كتب عن تلك المرحلة في مذكراته التي هي موضوع هذا الكتاب.

وما طال الزمان حتى عدت إلى الجامعة اللبنانية أستاذاً متعاقداً في معهد المعلمين العالي، ثم أستاذاً في ملاك كلية التربية التي أنشئت في العام ١٩٦٦. وفي غضون أربع سنوات بعد هذا التاريخ، عملت أستاذاً للغة العربية وآدابها في ظل إدارة الدكتور فؤاد أفرام البستاني للجامعة اللبنانية التي قد توسعت ونظمت تنظيمياً إدارياً سليماً، وقامت فيها كليات الحقوق والعلوم والآداب والتربية، ومعهد العلوم الاجتماعية، ومعهد الفنون الجميلة. وأخذت تتكامل يوماً بعد يوم، إلى أن بلغ رئيس الجامعة اللبنانية الدكتور فؤاد أفرام البستاني السن القانونية، فتقاعد من العمل في الجامعة اللبنانية، لكنه ظل مستمراً في أنشطته العلمية والثقافية والأدبية إشرافاً على أطروحات الدكتوراه في جامعة القديس يوسف، وتأليفاً في الحقل الأكاديمي، ومحاضراً ومتحدثاً في البرامج التلفزيونية، ذات المستوى الراقى. وفي هذه المرحلة، لا بد من ذكر أضخم عمل علمي ثقافي معجمي قام به أستاذنا الكبير، هو مشروع دائرة المعارف الذي صدره بمعلومة للذكرى والتاريخ، جاء فيها ما يلي: باشر تحقيق هذا المشروع ونشر مجلداته الستة الأولى من السنة ١٨٧٦ إلى السنة ١٨٨٣، المعلم بطرس البستاني المولود عام ١٨١٩ والمتوفى عام ١٨٨٣.

تابع العمل ونشر المجلدين: السابع، سنة ١٨٨٣، والثامن سنة ١٨٨٤ ابنه المعلم سليم البستاني (١٨٤٧-١٨٨٤)، استأنف العمل ونشر المجلد

التاسع سنة ١٨٨٧، والعاشر سنة ١٨٩٨، والحادي عشر سنة ١٩٠٠،
منتهاً بلفظة عثمانية، ابنا المعلم بطرس البستاني: نجيب البستاني ١٨٦٢ -
١٩١٩، ونسيب البستاني ١٨٦٧ - ١٩١٣، بالاشتراك مع نسيبهما سليمان
البستاني (١٨٥٦ - ١٩٢٥).

جدّد المشروع من أصله، فأعاد النظر في المجلّدات المنشورة، واستحدث
أبحاثها وفقاً لما وصلت إليه الدراسات العلميّة العصرية، وأعدّ العدّة لإتمام
العمل حتى النهاية بمؤازرة لجنة من الاختصاصيين في مختلف أنحاء العالم،
فؤاد افرام البستاني، رئيس الجامعة اللبنانية، وذلك برعاية صاحب الفخامة
الأستاذ كميل شمعون رئيس الجمهورية اللبنانية. وقد ظهر المجلّد الأوّل من
هذه الدائرة الجديدة سنة ١٩٥٦. وبعد ذكر المشاركين في مباحث المجلّد
الأوّل من الدائرة، وعددهم ثمانية وخمسون كاتباً اختصاصياً، كتب الدكتور
فؤاد افرام البستاني مقدّمة لهذه الدائرة في أربع صفحات كبيرة من صفحات
الدائرة، نختصر أهمّ ما فيها بما يلي:

١ - لكلّ أجل كتاب. لقد كان الربع الأخير من القرن التاسع عشر زمن نهضة
في البلاد العربيّة، ظهرت فيه المدارس والجمعيات والجرائد
والمجلّات والتأليف المدرسيّة والمعاجم والمنشورات العلميّة والأدبيّة
شعراً ونثراً؛ ممّا استوجب ظهور دائرة للمعارف باشر إخراجها منذ
السنة ١٨٧٦ المغفور له، المعلم بطرس البستاني، ورعاها حتّى وفاته
عام ١٨٨٣، مصدراً ستة مجلّدات، متوقّفاً في إعداد المجلّد السابع عند
لفظة دائرة، وهو من غريب الاتفاق.

٢- ورث العبد عن المعلم بطرس ابنه سليم فأخرج المجلد السابع سنة ١٨٨٣ والثامن سنة ١٨٨٤.

٣- بعد وفاته اضطرب العمل في الدائرة مدة لم تطل، إذ تولاه ولدا المعلم بطرس الباقيان: نجيب ونسيب، وعملا بمساعدة نسيبهما سليمان البستاني الشهير، معرب الإلياذة. وسرعان ما استقبل المثقفون في البلاد العربية ومواطن الاستشراق المجلدات الثلاثة: التاسع ١٨٨٧، والعاشر ١٨٩٨، والحادي عشر ١٩٠٠ ثم توقف المشروع نهائياً.

٤- بعد انقضاء نصف قرن، افتقد فيه المثقفون كثيراً مشروع دائرة المعارف، نهض الدكتور فؤاد افرام البستاني بالمشروع، فانطلق من القديم آخذاً بالجديد.

٥- أمّا القديم فبقي منهن التصميم الأصل الذي أقرّ الخطوط الكبرى للمشروع، على نحو ما فصله بطرس البستاني قبل ثمانين سنة، وقد أورده الدكتور فؤاد افرام البستاني بنصّه الأصل، ذاكراً ما ضمّنه المعلم بطرس من قبل، وهو مقسم كما يلي:

أ- العلوم الإلهية والفلسفية

ب- العلوم المدنية والسياسية

ج- العلوم التاريخية والجغرافية

د- العلوم التعليمية كالحساب والجبر والهندسة وما تفرّع عن ذلك

هـ- العلوم الآلية والكيمائية

و- العلوم الطبيعيّة

ز- علم الأدب واللغة والفصاحة والبيان والشعر والانشاء والتاريخ الأدبيّ

ح- الصنائع والفنون:

وأما الجديد فيقول الدكتور فؤاد افرام البستاني في صده: "إنّ تقدّم العصر قد أملى علينا خطّته، فضلاً عن حاجتنا الملحة إلى مسابرة في مختلف مظاهره. فكان لا بدّ من إعادة النظر في كلّ ما طبع من الدائرة القديمة. فهناك أبحاث يجب أن تجدد برمتها، وفصول ينبغي أن تزداد، وتحريّات وتدقيقات وإيضاحات ينبغي أن تضاف، لأنّ من العلوم ما نشأ نشأة مستأنفة كالكيمياء والفيزياء الحديثتين، وتطبيقاتها المتزايدة، ومنها ما جُدّدت فيه النظريّات كالفلكيّات والحيويّات على متفرّع ضروبها، ومنها ما أفاد كثيراً من الحفريّات والاكتشافات والأبحاث المعاصرة، كالأثريّات والتاريخ والجغرافيّة، حتى أنّ الأدب والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة وسائر الفنون والعلوم الانسانيّة نراها قد تطوّرت قليلاً أو كثيراً بالنظر لما كانت عليه منذ ظهور الدائرة، فغداً حتماً علينا أن نعمل النقد والتمحيص والتنقيح والبت والزيادة في المجلّدات الأحد عشر جميعها، وأن نعدّ العدة لإكمال الدائرة في أقرب وقت وأسهل متناول، وهو ما قمنا به متكلين على الله، مصدر كلّ علم، فأقررنا التصميم الشامل، واتّصلنا بعدد كبير من مشهوري الاختصاصيين في كلّ علم ومن أساتذة جامعات، وأعضاء مجامع علميّة وفنيّة، وأدباء وسُفراء وعلماء وفنّانين، من أبناء اللغة العربيّة والأجانب عنها من المقيمين في لبنان وفي غيره من أنحاء العالم، فلبّوا الطلب راضين، وأقبلوا على العمل راغبين مغتبطين بظهور دائرة معارف عامّة ترفع من مستوى الثقافة العربيّة، وتسهم

في سعي العالم الواعي لإقرار مزيد من التفاهم والتواؤ بين الشرق والغرب، والعمل على تقدير متبادل للقيم الثقافية الانسانية الصحيحة.

حيّا الله ذكراك يا أستاذنا الكبير، وأكرم مثواك في عالم الآخرة، فلقد كنت تؤمن بحوار الثقافات، وتفاعل الحضارات، واقتباس بعضها من بعض وهذا هو الرأي الصواب، لأنّ تواصل الحضارات وثاقفها هو سنّة طبيعيّة في حياتها التي تمتدّ زمناً ومكاناً، فتتلاقى فيما بينها عندما تتعاصر، وتغتني تراثاتها، بعضها من بعض، في جوّ من السلم والطمأنينة والتعاون والثقة المتبادلة. وهذا ما يدحض، بقوة ووضوح، نظريّة صموئيل هنتنغتون، أستاذ العلوم السياسيّة بجامعة هارفرد، وأحد كبار المؤلّفين الاستراتيجيين في أمريكا، التي أودعها كتابه الشهير الصادر في العام ١٩٩٦ بعنوان "صدام الحضارات، وإعادة بناء النظام العالمي"، والذي من شأنه أن يوجّع النزاع بين دول العالم، تبعاً لتصادم حضاراتها، وأن يجعل العدّادات تتحكّم في مصائر الشعوب وعلاقاتهم السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة وغير ذلك.

رحم الله أستاذنا الكبير وجعل من أبنائه وأحفاده خير خلف لخير سلف.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هَرَمٌ من أمجاد وأنوار

جئنا الدير نسألها عن ضريح سجا فيه، فقالت الدير:

إبحثوا عنه في روابي،

إسألوا خمائلَ الجبل عن وردة جورية،

إسألوا صخورَ لبنان عن منابت الصُّوان والريحان،

إسألوا هضابَ الشرق كم أشرقَ شمسُه عليها،

إسألوا الأجيالَ عن هَزَجِ أصدائه،

إسألوا المحاريبَ عن وَرَعٍ، والمعابدَ عن خشوع،

إسألوا العرائنَ عن آسادهما والنخاريبَ عن النسور،

إسألوا الأقلامَ عن غار الكلام،

إسألوا المنابرَ عن غواياتِ الفتون

إطلُّوه، قالت الدير، هناك.

إطلُّوه في مساحبِ النور لا في غياهبِ الديجور،

إطلُّوه في ندى القطر لا في ظمأ القبر.

مجده، قالت الدير، سرقة مني.

جَنَاحَاهُ الْجَبَّارَانِ حَمَلَاهُ إِلَى أَقَاصِي الْأَرْضِ.

فَهَلْ أَتَيْتُمْ، الْيَوْمَ، يَا طُلَّابَهُ وَزَمَلَاءَهُ وَالْأَصْدِقَاءَ اللَّائِي جَمَعْتَكُمْ شَيْمُ الْوَفَاءِ،
تَرُدُّونَهُ إِلَيَّ أَمْ تَسْتَرُدُّونَ؟

أَذَاكِرُ، يَا رَئِيسُ، فَتَى أَمْرَدٍ يَدْخُلُ وَصَحْبًا لَهُ مَكْتَبُكَ، مِنْذُ أَرْبَعِينَ مِنْ السَّنِينَ،
يَطْلُبُ بِتَعَالٍ وَصَلَفٍ أَنْ عَلَى رَئِيسِ الْجَامِعَةِ أَنْ يَمْنَعَ تَظَاهِرَةً يَسَارِيَّةً -
عَرُوبِيَّةً أَوْ يَمْنَحَ الْفَرِيقَ الْآخَرَ حَقَّ التَّظَاهَرِ فِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ عَيْنَهُمَا، وَإِلَّا
فَإِنَّهُ وَصَحْبُهُ سَيَتَوَلَّوْنَ هَذَا الْأَمْرَ بَأَنْفُسِهِمْ، فَتَلَقَّيْتَ الْفَتَى الْأَمْرَدَ الْمُتَمَرِّدَ
وَصَحْبَهُ بِسِمَةِ وَطُوقَتِهِمْ بِحَنَانٍ، وَجَعَلْتَ تَنْثُرَ أَمَامَهُمْ أَمَائِلَ فِي الْوَطَنِيَّةِ،
وَتَحَثُّهُمْ عَلَى تَخْطِي صَحْبِ الشَّهَوَاتِ، وَتَحُلُّهُمْ عَنْ الْحَرِيَّاتِ الْعَامَّةِ، وَتَدْعُو
إِلَى رَحَابَةِ الصَّدْرِ وَقَدْسِيَّةِ الْحَوَارِ، وَتَقُولُ: لَا تَجْعَلُوا وَطَنِيَّتَكُمْ تَعْصِبًا، فَلِبْنَانٍ
مِنْ بَيْتِهِ الْعَرَبِيَّةِ كَالنَّقْطَةِ مِنَ الدَّائِرَةِ، وَتَذَكِّرُهُمْ بِكَلِمَةِ خَاطِبٍ بِهَا قَوْلَتِيرِ
خَصَمِهِ: "بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَدَاوَةٌ لَدُّود. بِيَدِ أُنِّي أَبْذِلُ حَيَاتِي دِفَاعًا عَنْ حَرِّيَّتِكَ فِي
انْتِقَادِي".

ذَاكَرْتُ أَنْتَ، وَلَيْسَ فِي الْأَمْرِ رَيْبٌ، كَيْفَ شَدَّدْتَ ذَلِكَ الْأَمْرَدَ الْمُتَمَرِّدَ فَوَجَدَ
فِي كَنْفِكَ مَدْرَسَةً، تُرْشِدُهُ إِنْ اسْتَنْصَحَكَ، وَتُثَقِّفُ عَقْلَهُ إِنْ لَازَمَكَ، وَتَرْسُخُ
فِي نَفْسِهِ ثِقَافَةً وَطَنِيَّةً لِبْنَانِيَّةً فَيَجِدُ لَدَى دِرَاسَتِهِ شَارِلَ قَرْمِ "أُمَّةٍ فِي رَجُلٍ"،
وَتَوَطِّدُ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةَ الضَّادِ فَيَضَعُ دِفَاعًا عَنْهَا بَلِيغًا، وَتَنْثُرُ أَمَامَهُ مِنْ خَزَائِنِ
الثَّقَافَةِ اللَّبْنَانِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ الْمُمَيَّزَةِ مَا امْتَلَكَ مُشَاعِرُهُ حَتَّى الْاسْتِثْنَاءُ فَيَبْرَزُ مَنَاضِلًا
بَدَلًا لِلْبْنَانِ وَلَقِيمَ الْعَرَبِ إِلَهَامَهُ كُلَّهُ وَالْجِهَادَ.

تَعَالَوْا، هُنَا، نُحْيِ ذَلِكَ الزَّمَنَ الطَّيِّبَ فِي لِبْنَانٍ وَفِي جَامِعَتِهِ الْوَطَنِيَّةِ الْجَامِعَةِ،
وَقَدْ رَشَفْنَا فِي نَدَوَاتِهَا وَمَنَابِرِهَا مِنْ مُنْهَبِ أَفْوَاهِ فُؤَادِ أَفْرَامِ الْبَسْتَانِي، وَجَوَادِ

بولس، وأسد رستم، وكمال جنبلاط، وكمال الحاج، وسعيد عقل، وعبدالله
العلائلي، وصبحي الصالح، وإدمون رباط، وموريس الجميل، ونيار إده،
وبشير العريضي وسواهم، حقائق عمقت وطنيتنا اللبنانية وعمّقت رسالتنا
العربية الحضارية!

وما نسينا، يا معلّم، أننا أخذنا بعض الحِلْم والعلم والمنهجية منك: مرةً، ونحن
على مقاعد الدراسة نقرأ في "روائعك"، وطوراً، في كلية الآداب نظفر بك
معلّماً سبقه إلينا وهجُ الاسم وأرجُ العلم، فإن تدخل الصفّ تمش في خطاك
الأهداب، وإن تنظر تبتذّ زهوة في تواضع وروعة من جلال، وإن ترمق فعيناك
تتحريان وتستوضحان، وإن تتحدث تشمّر على شفّتك وعينيك وبديك
اللتين تقولان كل ما ينطق به جسدك، فندرك، يا أبا هند، كيف المُرنة تتحدّر،
وكيف السيل ينهمر، وكيف نلّم من دوائر معارفك حبات الجُمان، وكيف
النشوة تتطاوّل والساعات تتقاصر، فلا أنت تكِل، ولا نحن نمل، ولا ينفص
متعة من كانوا طلابك أو سُمّارك سوى خشيتهم أن ينفص عقدهم، وأن
تمضي فتمضي في إثرك الألباب.

ذاكرين لا نزال حرمة المنطق لديك، ورصانة الجدل، وصرامة القياس،
وهندسة التصميم، وبُعْد الغور، ولطف الأسلوب، ووضوح العرض، وقرب
المأخذ، والسداد في الحكم، وتواضع العلماء، وسعة المعارف، والحرارة في
النكتة، والمفاجأة في الجواب المُسكت.

وانت، يا دير القمر،

أيتها القلعة الرابضة على صدر الزمان،

أيتها العدن الغرقى في المواهب والجماليات،

أَيُّهَا العروسُ المتَّشحةُ بالغيم، المؤتزرةُ بالقيم،

يا أخيلةَ الأمراءِ والفرسانِ في مخيلاتِ الأطفالِ،

يا عاصمةَ المعنيتين وفخر الدين والشهابيين،

رُدِّدي، يا ديرٌ، على مسامعنا ما قالتِ العبقريَّةُ لِفَتَّاكِ: إِهْجُرْ بَسْتَنَةَ البراري، يا
ابنَ البساتنة، وحيّ على بَسْتَنَةِ البرايا، فَإِنِّي جاعلةٌ لك من الناسِ حقولاً.
إِزْرَعِ البشرَ، وفي البشرِ، وصيِّرِ الناسَ ناساً.

وخرَجَ البستانيُّ ليزرع، فزَرَعَ على قارعة طريق البشرِ فأكلتِ الطيرُ ما زَرَعَ؛
وزَرَعَ في أرضٍ حَجَرَةٍ فسرعان ما ذَبُلَ ما ليس له أصلٌ؛ وزَرَعَ في الشوكِ
فحَنَقَ بذارَه الشوكُ؛ وزَرَعَ في أرضٍ جيِّدةٍ فأثمرَ ثلاثين، وستين، ومئة.
فباسم هؤلاء الذين أخصَّبتهم فكرُك، جئنا نحيِّيك، يا أيُّها المعلِّمُ الحيُّ الخالد.

وجئنا نحيِّيك يا مرثمٌ، يا ابنَ أفرام، أيُّها المسيحيُّ السُّريانيُّ، أيُّها المارونيُّ
العلامةُ كمارونيُّ، يا حاملَ الشرقِ في عينيك وقلبك واللسان، يا قنينةَ الفكرِ
التي غالبتْها الأمواجُ الهُوجُ فما نالت منها نائلاً، أيُّها المتبحرُ في كتاب
الحقائق الكبرى اللامبالي بالترهات، أيُّها الغائصُ بنا إلى معرفة الذاتِ
والآخر، أيُّها الراهبُ مَسْلُكاً غيرَ مَشُوب، وتنقيباً في إرث الكنيسة غيرَ
مَسْبُوق، ألا فاقتبلْ تَحِيَّتَنَا.

ونحيِّيك، يا فؤاد، متحدِّراً من أجدادِ أنجادِ أجوادِ كانوا قلبَ جزيرة العربِ
نِجاراً ولساناً، وخفُّوا يتحضِّرون ويبنون ملكاً وينتظمون جيشاً ومدرسةً
وكنيسةً. فكنتَ وفيّاً لأجدادك الفرسانِ والقديسين تَخْلَعُ أسماءَهم على
أبنائك حارث ويحيى ومنذر وغيث وعدي، وفتاتك هند، مثلما كنتَ

مُخْلِصاً لِبَيْعَتِكَ المَارُونِيَّةَ وَمَهْبِطَ أَجْدَادِكَ بِقِرْقَاشَا فِي الوَادِي المَقْدَسِ
فَتَسْمِي بِاسْمِ عِزْرَاءَ قَنْوَبِينَ مَارِينَا.

حيثُوا معي من رأيناه في إعصار لبنان يصمدُ نسرًا، وينبري ثابتَ العزم شاهراً
قلماً دونَه القنا ولساناً لم يَحْتَبِسْ خوفاً ولا حَذَرًا، يُجَنِّدُ للدِّفاعِ عن الكيانِ
مقالاته والأحاديث، وهو من أدرك أنَّ القولَ ينفِذُ ما لا تنفذُ الإبرُ، وهو من صَحَّ
فيه وفي آله قولُ أبي ريشة:

أَوْ لَسْتَ مِنْ نَسْلِ الأَلَى نَسَلُوا العُلَى
وَكَسَرُوا دِياجِيرَ الوَرَى بِمَنَائِرِ

وتطلَّعوا صوبَ الشَّمُوسِ وَأَسْرَجُوا
لِلْفَتْحِ صِهْوَةً كُلُّ مُهَرِّ ضَامِرٍ
وتعالوا نُحْيِيهِ، أخيراً، معلِّماً عملاقاً تَأَجَّجَ فِي الوَطَنِيَّةِ اللَّبْنَانِيَّةِ، وَعَلَمًا
موسوعيًّا تتوَجَّحُ فِي العُرُوبَةِ الحضاريَّةِ، فنحن ممَّن يشهدون أنَّ فؤاد أفرام
البستاني في طليعة من حملوا رسالة التعايش وأثبت أنَّ لبنانيَّةه لم تكن تعصباً
ولا انعزالاً ولا استلاباً للبنان من بيئته العربيَّة، وكيف يكون ذلك لدى من كان
أشدَّ الأقلام حَذَباً على لسان العرب، وعَزَّزَ حضورَ الثقافة اللَّبْنَانِيَّةِ فِي الثقافةِ
العربيَّةِ التي وَضَعَ عَشْرِينَ أَلْفَ صفحةٍ فِي تراثها وقيمها الحضاريَّةِ، وجَعَلَ
"دائرة المعارف" أداةً ثقافيَّةً صحيحةً شاملةً فِي سبيل النشء العربيِّ!

أو يكونُ الغلوُّ فِي محبةِ الأوطانِ عيباً، والترهُّبُ للثقافةِ شَيْئاً، والتعصُّبُ
للحقيقةِ ذِمًّا، والوحدةُ بين العقيدة والقول والعمل كُفْراً، فنسمع ونقرأ من
يعيبُ وَيَشِينُ وَيَذُمُّ وَيَكْفُرُ، بينما لسانُ المعلِّمِ العبقريِّ يردُّدُ:

فكم جبل يغفو على النجم حنة
وأذيان له لسائمات ملاعب
فؤاد أفرام، يا رئيسي ومعلمي، هل أستحق، بعد، أن أدعى لك تلميذاً؟
والسلام عليك،
وعليكم السلام.

فؤاد افرام البستاني في يومه مَن الشخص ومَن دائرة المعارف؟

إذا بدا شاقاً إقناعُ الأجيال الجديدة بالعبء من دائرة المعارف بأجزائها الخمسة عشر، أو من سائر الأعمال الموسوعية، فأرجو أن يكون بالمستطاع إقناعها بقراءة التقديم الذي وضعه صاحب هذا اليوم الجلل للجزء الأول من الدائرة الصادر في مستهل النصف الثاني من القرن العشرين، وهو تقديم واقع في صفحات أربع، بلا زيادة ولا نقصان.

أدعو إلى قراءة هذه الصفحات، لأظفر بما يمكن الظفر به، في عالم كاد يُنعتُ بعالم اللاكتاب واللابلاغة، ولأنها لا تُخيبُ أمني لدى محاولة تكوين صورة من صور جمّة يتّصف بها من يستاهل أن نسمّيه معلماً بالفهم الملائم، وعالمًا بالمضمون الإنساني المشرق، وصاحب قلب لبناني وقلم عربي قل أن تجدَ لهما مثيلاً في التعلّق بالأوطان، وفي التخاطب بلغة الضّاد كما يتخاطب الفرسان بالأسياف على صهوات الجياد.

أقرأ الأربع الغنيّات، والمُغنيات عن سواها في هذه اللحظات العجلى، وأستعيرُ منها معالم ثابتة يُمكن أن تُشكّل مدخلاً يُمهد لاستقراء شخصية أول ما يلفت فيها هو التناغم ما بين بداياتها والنهايات... وحدة المقلع ما بين حجارة الأساس ومداميك الزخارف... حركة الاندفاق في مسيل النهر منذ

فُوهات الينابيع حتّى المصبّات الشالّية... والعلى... على الريشة وعلى الهامة، منذ البزوغ حتّى البلوغ، وهما لم تنحنيا إلاّ للحقائق الكبرى، وللبنان.

من هذه المعالم أنّ في التقديم رياحاً هابّةً من جهة النهضة العربيّة التي بدأت مصابيح أبنائها تُضوّى منذ الربع الأخير للقرن التاسع عشر، وصولاً إلى مكرّمنا الذي ما قرئ مرّةً وما سُمع إلاّ وكان يُفاجئ القارئ والسّامع بكلماتٍ لُقيات، وبوريقات كنوز، وبطُرفٍ وطرائف وفرائد تُغنيك أحياناً عن التجوال في مَغاني الحضارات وزوايا المتاحف.

ومن المعالم غيرة ما بعدها غيرة على لغة الضّاد، ومن ظواهرها الإدراك أنّها الأصيلة والأُمّ والينبوع، وحاملةُ المخبّات والرموز، وحسناؤنا البدويّة السمراء، والعاكسةُ بمراياها الحضاريّة تراثنا والأمانى. وإذا كانت هذه حالها في وجهها الطقسيّ وفي ادّخار لآلى الأمس، فهي، كما يقول، "لا تضيق مجالاً بعلم حديث، ولا تعيى بالتعبير عن فكر جديد إذا ما تدبّرتها رويّة علمائها الرواعين، وكتّابها المخلصين". هاتان الضّفتان تحدّدان بحر اللغة المحيط. وبينهما اختار ابن الضّادّ البار لأسلوبه ركائز خمساً هي "استعمال القديم الصالح المأنوس... والأخذ بالمجاز على أنواعه، وهو باب واسع طرقه العرب في القديم... والأخذ بالاشتقاق أسلوباً ثالثاً... ثمّ بالنحت... وأخيراً بالتعريب". وفي ذلك كلّ ما يؤكّد إيمانه بأنّ اللغة كائن دائم الحياة. جَمْدُهُ تتجمّد الحضارة. أطلقهُ تنطلق معه إلى دنيواتٍ جديدة. أغلقِ القمقم عليه تحبسْ عنك نسائم الحرّية والنّماء والحياة. افتحْ له الدرب يمشِ معك إلى المدهش العصيّ من الفتوحات...

ومن المعالم أنَّ الصفحاتِ إيَّها تشقُّ لك طريقاً آخر نحو التعرف إلى واحدٍ من علماء الأنسنة، أو من الانسانيين الكبار (Les Grands Humanistes) ذوي الثقافة الشموليَّة الذين تساعدنا في فهم دورهم عودة إلى عصر النهضة الأوروبيِّ. كان هؤلاء يُحيون الآداب القديمة، ويتنسَّكون للمعرفة، ويختطُّون لأنفسهم منهجاً فكرياً خاصّاً، وتضييق صدورهم بالدوائر والمرتعات الصغيرة، ويرفدون كيمياء الحرف والآداب بكيمياءات التاريخ والعلم والفلسفة، فيصبحون، على غرار دائرة المعارف، "قاموساً عاماً لكلِّ فنٍّ ومطلب".

وكان الشرقيُّون منهم يسهمون - كما جاء في كلام أستاذنا - في السعي إلى "إقرار مزيد تفاهم وتوادٍ بين الشرق والغرب، والعمل على تقدير متبادل للقيم الثقافيَّة الإنسانيَّة الصحيحة..." إنَّ المشرقيين العرب من هؤلاء كانوا من إنتاج النهضة ومن منتجيتها. من ثمارها ومن زرع المثمر فيها. ولنا الحقُّ، لنا الحقُّ الآن، في الدلالة مرَّة أخرى على أنَّنا نشهد في موكبهم وجوهاً مكتوباً على جباهها نحن من لبنان، من الأخ الواحة الفكرية، من الأخ اللؤلؤي الصغير في هذه الديار العربية الرحبية، الذي قدَّم للنهضة ما ينتظر منه ويزيدا وكيف لا يفعل ما فعَّله، وقد نثر الله على شواهقه ومباسطه والمقدَّس من أوديته قدرَ ما سكب في عقول أبنائه من مواهب ربَّانيَّة تفجَّرت كرماءً في الطبيعة وكرماً في الأقلام... لا، لم يعد غريباً، أمام ما حمَّله صدر هذا النهضةويِّ الكبير من مخزون ثقافيٍّ، وأمام الحاتميَّات من كرم قلمه، وبالرغم ممَّا في دائرة المعارف من مساهمات "لأعلام من أرباب الأدب ورواد الجمال" كما يقول، أن تختلط المعرفة على المرء فيخال، إذا ما أمسك بدائرة المعارف، أنَّه يصافح فؤاد أفرام البستاني، كما يخال، إذا ما جمعه بهذا الفريد مجلس، أنَّه أمام دائرة معارف...

وإن أنسى لا أنسى واحداً من هذه المجالس دعانا إليه، زمان الفتوة الأولى والطبيب والطموح، صديقنا ورفيقنا في الجامعة، حارث، وقد انعقد ذات مساء في عاصمة الأمراء، وفي دارة والده التاريخية التي يمكن أن نعتبرها من "عواصم" الثقافة في دير القمر، وفي لبنان. سقى الله أياماً كنا فيها في جوار العشرين، وما عدت أميّر، كلما استعدتها بالذكرى، ما إذا كان حارث قد جمعنا بوالد من لحم ودم وظرف وطرافة وفكر ووجدان، أم بدائرة المعارف ذاتها.

و من المعالم أيضاً - علينا ألا ننسى ذلك - شيمة الوفاء التي لا تغط السلف حقاً، وعلى الأخص إذا كان كالمعلم بطرس البستاني مؤسس الدائرة، وكأبنائه سليم ونجيب ونسيب، ونسيبهم سليمان "اللياذي" إذا صحّت العبارة. هؤلاء جميعاً، الشركاء في اللقب البستاني الذي بات مرادفاً للابداع، وللمآتي الأدبية الكبرى، مرّ المقدم على أسمائهم مرور العالم الذي لا يغفل حلقة من حلقات السلسلة، ومرور الأديب الذي يمسح الكلام بمسحات الرقة كلما دار على حبيب أو قريب.

ومن المعالم أخيراً، بل أولاً، هذا الأسلوب البنياني، هذا السهل بوعره، الحديث بجاهليته، المبتكر بأصالته، المحبوك بما فيه من عبارات تمشي الهيزلي وتراقص خصرأ على خصر وضمة من "جماليات القدود" تتنافس مع ضمم أخرى. مالي وللممثل في هذا المقام، والعجالة فيه مفروضة ومستساغة. ولكنني أسمح لنفسي باستعادة شهقة من شهقات الإعجاب بكل نثر عظيم، أطلقتها في مناسبة غير بعيدة عن هذه الساعة (حول كتاب صواري

الزمان لشوقي خير الله)، وقد حملتها كلاماً منطبقاً تمام الانطباق على أسلوب معلّمنا هذا، طيّب الله ثراه:

ما ذنبي، قلت وأقول منتصراً للنثر النهضويّ، ومنه نثره، "إذا كنت لا أزال أقرأ النثرَ الشامخَ الرأس، والنثر المتأنّي، والنثر المفتول السّاعدين، والنثر النّسر، والنثر السحر، والنثر الأصالة، والنثر اللّسان المستقيم، والنثر الوجدان، والنثر الجمال، والنثر العقل... لا النثر الخجول، والنثر العجول، والنثر المفكّك الأوصال، والنثر المهيض الجناح، والنثر البلادة، والنثر الهلهلة، والنثر التعثر، والنثر الجفاف، والنثر القبح، والنثر الجنون!"

مثلُ هذا النثر أخذناه في الجامعة عن أساتذة أفذاذ، سمّهم لو شئت أيضاً بحارّ العلوم، وأساطين الفصاحة، وملافة البيعة اللغويّة، كفؤاد افرام البستاني، وبطرس البستاني الثاني، "ربّ الأدب" الذي علّمنا أيضاً في مدرسة الحكمة، والموسوعيّ الآخر جبّور عبد النور، والفقيه الشيخ صبحي الصالح، وسواهم...

أين هم الآن؟ أين هي مكتباتهم؟ ومتاحفهم؟ أين الوفاء؟ أين المصنّفات والمجلّدات ودوائر المعارف وعمارات الأدب والألسن المستقيمة والأقلام المشاعل وبحيرات العلوم؟ وأين منها الاهتمامات عموماً، واهتمامات الأجيال الجديدة خصوصاً؟ أسأل الآن عن الأوراق الغالية جميعاً، لا عن الصفحات الأربع وحسب... ولم تكن هذه الصفحات المفاتيح، والمصابيح، غير عيّاتٍ نقدّمها إلى المتأدّبين كما يقلّم الخمار رشفةً من عصير الكرم ليتلمّظها الذواقون، أو كما يعرض الجواهريّ خاتماً مرصّعاً بالأندر والأغلى

ليشدّ إلى حانوته الحسنات، فتُفتّح سوق الذهب، ويختلط الجمال
بالجمال.

فؤاد أفرام البستاني وجامعة القديس يوسف

بين فؤاد أفرام البستاني وجامعة القديس يوسف غروة وثقى لا تنفصم، حُبكت خلال سنين مديدة، ووطّدها تفاهم عميقُ الجنور، وتعاون مستمر لم تشبه شائبة. وتحتاج العلاقة هذه إلى أناة في البحث، وطول تأمل، لغناها وتشعبها، ولضرورة الاستناد إلى محفوظات جامعة القديس يوسف عموماً، ومحفوظات معهد الآداب الشرقية خصوصاً، ومنها وثائق كثيرة لم يكشف النّقاب عنها، أو لم يُستفد منها كما ينبغي، أو لم يحن الوقت لوضعها في التداول.

وحسبي في هذه العجالة، أن أشير إلى محطات أربع، يُمكننا الوقوف عليها، للنظر في بعض ما جمّع بين الرجل الفذ والمؤسسة العريقة.

أ- أمّا المحطة الأولى فهي دراسة فؤاد أفرام البستاني في كلية القديس يوسف: فقد كان من تلامذة الخطابة (Classe de rhétorique) في الكلية^(١)، وأحد أعضاء المَحْفِل العربي فيها^(٢) بل متقدّمه^(٣). وقد وصّفه الأب لويس شيخو (١٨٥٩-١٩٢٧)، وهو يُعرّف سنة ١٩٢٦، بسلسلة

١- المشرق، ٢٢ (١٩٢٤)، ٢٨١-٢٨٣.

٢- م.ن.، ٢٢ (١٩٢٤)، ٤٥٧-٤٦٤.

٣- م.ن.، ٢٢ (١٩٢٤)، ٨٦٩-٨٧٥، ٢٣ (١٩٢٥)، ٥٩-٦٣.

رواياته التاريخية، على عهد الأمير، فقال: "إنه غرسة أدبية جديدة نمت في روضة الأسرة البستانية بعد ازدهارها في مُستَنبَتِ مدرستنا الكلية"^(٤).

ب- وأما المحطة الثانية فهي إسهامه الواسع في مجلة المشرق التي أسسها الأب لويس شيخو، في بيروت، سنة ١٨٩٨. ويُمكننا أن نتتبع مسيرته من خلالها: فقد رافقها مئة ثلاثين سنة (١٩٢٣-١٩٥٢)، وعاون ثلاثة من الآباء اليسوعيين الذين توالوا على إدارتها، وهم الآباء هنري لامنس (Henri LAMMENS)، ورينيه مُرتَرْد (René MOUTERDE)، وروبير شدياق^(٥).

وقد سعى إلى تحقيق أهداف المجلة؛ وتوزعت مشاركته فيها على مجالات ثلاثة: أولها البحوث والدراسات؛ وثانيها وصف المطبوعات الجديدة وما نشرته المجلات؛ وثالثها شذرات وتعريفات شتى. ويبدو في ذلك كله، باحثاً متمكناً من مادته، وناقداً ثاقب النظر، ومترجماً أميناً، وأديباً راوياً، وصاحبَ خواطر عميقة، وشاعراً رقيق العاطفة مؤمناً، ومراقباً بصيراً حاضراً على الساحة الفكرية والاجتماعية.

وأكثر ما يسترعي انتباهنا في المجالات هذه، موسوعيته القائمة على تنوع اختصاصاته: فيُدلي بدلوه في تاريخ العرب وجغرافية بلادهم، وتاريخ لبنان وجغرافيته، والفلسفة، والتربية، والعلم. ولكن إسهامه الأكبر كان في

٤- م.ن.، ٢٤ (١٩٢٦)، ٨٧٥.

٥- فيما يختصّ بالمشرق ومراحل صدورها والقيمين عليها، راجع: أهيف سنو، "مجلة المشرق والآداب العربية منذ جاهليتها حتى الحرب العالمية الأولى"، المشرق، ٧٢ (١٩٩٨)، ٣٠٨، الحاشية (٤)، والمآخذ المذكورة فيها.

الدراسات الأدبية: فَعْنِي بِالْآدَابِ الْعَرَبِيَّةِ شِعْراً وَنَثْراً عَلَى تَتَابِعِ عَصُورِهَا، مُفَسِّحاً فِي الْمَجَالِ لِلْجُهِودِ الْإِسْتِشْرَاقِيَّةِ، مُعْتَمِداً الدِّرَاسَةَ التَّارِيخِيَّةَ لِلْأَدَبِ - وَهِيَ الْمَنْهَجُ السَّائِدُ فِي أَيَّامِهِ - مُتَنَاوِلاً عَصْرَ الْأَدِيبِ وَحَيَاتِهِ وَنَتَاجَهُ، دَارِساً أَغْرَاضَ الشَّاعِرِ، مُقَارِناً مُوَازِناً^(٦).

ج- وَأَمَّا الْمَحْطَّةُ الثَّالِثَةُ فَهِيَ جُهِودُهُ التَّدْرِيسِيَّةُ: فَقَدْ دَرَّسَ فِي كُليَّةِ الْقُدَيْسِ يَوْسُفَ (١٩٢٥-١٩٣٥)، قَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ إِلَى التَّدْرِيسِ فِي مَعْهَدِ الْآدَابِ الشَّرْقِيَّةِ. وَكَانَ الْآبَاءُ الْيَسُوعِيِّونَ قَدْ أَنْشَأُوا فِي بَيْرُوتَ، سَنَةَ ١٩٠٢، الْكُليَّةَ الشَّرْقِيَّةَ لِتَعْلِيمِ كُلِّ مَا يَتَّصِلُ بِالْمَشْرِقِ السَّامِيِّ. وَقَدْ اضْطُرَّتْ الْحَرْبُ الْعَالَمِيَّةُ الْأُولَى وَمَا تَلَاهَا مِنْ اضْطِرَابَاتٍ، الْآبَاءَ الْيَسُوعِيِّينَ إِلَى تَوْقِيفِ التَّعْلِيمِ فِيهَا حَتَّى سَنَةِ ١٩٣٣. فِي هَذِهِ السَّنَةِ، عَادَ التَّعْلِيمُ وَأُخِذَ مَجْرَاهُ بِشَكْلِ جَدِيدٍ، هُوَ دُرُوسُ فِي الْآدَابِ الشَّرْقِيَّةِ (Leçons de lettres orientales)، تَتَنَاوَلُ فَقْهَ اللُّغَةِ، وَالْآدَابِ، وَالتَّارِيخِ، وَالْآثَارِ، وَتَسْتَفِيدُ مِنْ جُهِودِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَمَنَاهِجِهِمْ، وَتَتَوَجَّهُ إِلَى الشَّبَّانِ الْمُثَقِّفِينَ، وَأَسَاتِذَةِ الْمَدَارِسِ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ، وَإِلَى الْأَجَانِبِ الْمُقِيمِينَ فِي لُبْنَانٍ. ثُمَّ نُظِّمَتْ هَذِهِ الدَّرُوسُ سَنَةَ ١٩٣٦، فِي مَعْهَدٍ دُعِيَ مَعْهَدُ الْآدَابِ الشَّرْقِيَّةِ، لَا يَزَالُ مُسْتَمِراً إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

فَمِنْذَ تَشْرِينِ الثَّانِي ١٩٣٣، بَدَأَ فُزَادُ أَفْرَامِ الْبَسْتَانِي يُلْقِي دُرُوسَهُ فِي جَامِعَةِ الْقُدَيْسِ يَوْسُفَ، وَلَمْ يَتَوَقَّفَ عَنِ التَّدْرِيسِ فِي مَعْهَدِ الْآدَابِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَّا فِي

٦- لِلتَّوَسُّعِ فِي إِسْهَامِهِ فِي الْمَشْرِقِ، رَاجِعْ: أَهْيَفُ سَنُور، "فُزَادُ أَفْرَامِ الْبَسْتَانِي فِي مَجَلَّةِ الْمَشْرِقِ

(١٩٢٣-١٩٥٢)، حَوَالِيَّاتُ مَعْهَدِ الْآدَابِ الشَّرْقِيَّةِ (جَامِعَةُ الْقُدَيْسِ يَوْسُفَ، بَيْرُوتَ،

٢٠٠٠)، الْمَجْلَدُ السَّابِعُ (١٩٩٣-١٩٩٦)، ص ١٣-٥٩.

خريف ١٩٩٣. وكان في أثناء ذلك حريصاً على المعهد، غيوراً عليه، وتلازمت مسيرتهما إلى حدٍّ بعيدٍ، ولم تحُل المناصبُ العالية التي تقلَّب فيها، دون تأمين دروسه فيه.

وهكذا انضمَّ إلى الرعيل الأوَّل الذي أسَّس معهد الآداب الشرقية، وتولَّى التدريس فيه. وحسبني أن أشير إلى بعض من ذاعت شهرته من زملائه الأوائل، وهم (حسب الترتيب الأببائي العربي): الآباء جاك بونيتمار (Jacques BONNET-EYMARD)، وأنطوان بوادبار (Antoine POIDEBARD)، وهنري شارل (Henri Charles)، وهنري جلابير (Henri JALABERT)، وهنري فليش (Henri FLEISCH)، وبيار مازاس (Pierre MAZAS)، وجان ميسيريان (Jean MÉCÉRIAN)، ورينيه موترد (René Mouterde)، فضلاً عن الأساتذة: دانيال شلومبرجيه (Daniel SCHLUMBERGER)، وهنري سيريف (Henri SEYRIG)، وغاستون فييت (Gaston WIET)، والمغفور لهما: خليل الجُرّ، وجبّور عبد النور، وغير هؤلاء كثير. وتجدر الإشارة إلى أنه تولَّى سنة ١٩٦٣، مع الأب موريس تالون (Maurice TALLON) تمثيل المعهد في مجلس جامعة القديس يوسف.

وتنظم دروس فؤاد أفرام البستاني في معهد الآداب الشرقية في ثلاثة محاور^(٧).

٧- يمكن تتبع هذه المحاور وتفاصيلها، من خلال الكتيّبات التعريفية التي تتضمن البرامج الدراسية في معهد الآداب الشرقية، منذ العام الجامعي ١٩٣٣-١٩٣٤، حتّى العام الجامعي ١٩٩٢-١٩٩٣.

١- الآداب العربية، وقد درّسها منذ خريف ١٩٣٣ إلى خريف ١٩٩٣، وسلك عدّة مسالك. فخصّص دروسه في كلّ سنة جامعيّة بين ١٩٣٣ و ١٩٣٩ لعاصمة من عواصم الأدب العربي متناولاً تأسيسها، وحياتها الاجتماعيّة والثقافيّة والفكريّة، والفنون الأدبيّة وأهمّ الشعراء والأدباء فيها. فانطلق من بغداد أيّام العباسيّين (١٩٣٣-١٩٣٤)، إلى دمشق أيّام الأمويّين (١٩٣٤-١٩٣٥)، فإلى حلب أيّام الحمدانيّين (١٩٣٥-١٩٣٦)، فإلى القاهرة أيّام الفاطميّين (١٩٣٦-١٩٣٧)، فقرطبة وغرناطة وإشبيلية عواصم الأدب في الأندلس (١٩٣٧-١٩٣٨)، فبيروت عاصمة النهضة (١٩٣٨-١٩٣٩).

ثمّ درّس الجاهليّة (١٩٣٩-١٩٤٠) بصفتها مهدياً للآداب العربيّة، قبل أن ينصرف في كلّ سنة جامعيّة إلى دراسة الفنون الأدبيّة في عهد من العهود التاريخيّة. فانطلق من الفنون الأدبيّة في الجاهليّة (١٩٤٠-١٩٤١)، إلى الفنون الأدبيّة في العهد الأمويّ (١٩٤١-١٩٤٢)، فالحمدانيّين (١٩٤٢-١٩٤٣)، ففاطميّين (١٩٤٣-١٩٤٤)، فففي أيّام الحمدانيّين (١٩٤٤-١٩٤٥)، فففي الأندلس (١٩٤٥-١٩٤٦)، فففي عصر النهضة (١٩٤٦-١٩٤٧، ١٩٤٧-١٩٤٨).

وبعدما استنفد خطّته هذه، تابع تنويع دروسه من سنة إلى أخرى مُنتقلاً من عصرٍ إلى عصرٍ، ثمّ نلاحظ أنّه، منذ منتصف الستينيّات، انصرف بشكلٍ مستمرٍّ إلى آداب الجاهليّة والعصر الأمويّ، مشدّداً على مجموعة من الشعراء والأدباء الذين يُمثّلون عصرهم خير تمثيل. فاختار في الجاهليّة الشنفرى ممثلاً للصعاليك، والأعشى لشعراء المدح، وعديّ بن زيد لشعراء

الحضرة؛ واختار في العهد الأموي الأخطل ممثلاً للشعر السياسي، وعمر بن أبي ربيعة لتطور الشعر الحضري، وعبد الحميد الكاتب لظهور النثر العربي.

٢- وأما المحور الثاني فهو دروس تناول فيها منذ ١٩٤٢ حتى ١٩٤٦، نظم الشعوب الناطقة باللغة العربية، ومنذ ١٩٤٦ حتى منتصف الستينيات حضارة البلدان الناطقة باللغة العربية. واعتمد في ذلك دراسة النصوص المتنوعة، وتمارين تطرح على الطلبة. وتدرج في تدريسه النظم من عصر إلى عصر (الجاهلية - صدر الإسلام - العصر الأموي - العصر العباسي الأول) مخصصاً لكل عصر سنة جامعية كاملة.

٣- وأما المحور الثالث فيبرز منذ العام الجامعي ١٩٧٣-١٩٧٤، إذ أضاف إلى تدريس الجاهلية والعصر الأموي، تدريس الحضارة العربية الحديثة والمعاصرة، ورمى من خلال ذلك إلى وضع مدخل إلى دراسة الآداب العربية. فحلل مفهوم الثقافة، والحضارة، والأدب، وتتبع الفنون الأدبية، قديمها وحديثها، في تطورها، وشدد على دور اللبنانيين في تطوير الفنون القديمة وابتداع فنون جديدة.

وتجدر الإشارة إلى الجسر الذي أقامه فؤاد افرام البستاني بين معهد الآداب الشرقية من جهة، ومجلة المشرق من جهة أخرى، عملاً بالتوجه الذي حدده سنة ١٩٣٣، رئيس جامعة القلبيس يوسف، الأب كوستا دو بورغار (J. Costa de BEAUREGARD)، في رسالة عامة وجهها في ١٠ تشرين الأول، لمناسبة افتتاح "دروس الآداب الشرقية" (٨):

٨- راجع وجه الورقة التعريفية بـ "دروس الآداب الشرقية"، للعام الدراسي ١٩٣٣-١٩٣٤.

- فمقالته: "بغداد عاصمة الأدب العباسي"، المنشورة في المشرق^(٩)، سنة ١٩٣٤، هي مادة المحاضرتين الأوليين من محاضرات معهد الآداب الشرقية، في فرع الفلسفة والآداب السامية؛

- ومقالته: "تمازج العناصر البشرية في بغداد العباسيين"، المنشورة في المشرق^(١٠)، سنة ١٩٤١، هي مادة المحاضرتين الثالثة والرابعة من محاضرات معهد الآداب الشرقية في الفرع نفسه؛

- ومقالته: "الإنشاد أو الفن الأصيل في الأدب الجاهلي"، المنشورة في المشرق^(١١)، سنة ١٩٤١ أيضاً، هي مادة المحاضرات الأولى والثانية والثالثة من محاضرات معهد الآداب الشرقية في فرع الأدب العربي، للسنة الدراسية ١٩٤٠-١٩٤١.

٤- وأما المحطة الرابعة والأخيرة فهي تلك العلاقة التي قامت بين فؤاد أفرام البستاني والآباء اليسوعيين. فقد كان وثيق الصلة بهم، يطلعونه على خصوصيات مؤسساتهم، ويذكرونه في بعض كتاباتهم، باسمه الأول: "فؤاد"، ألفةً وتحبباً. وفي هذا المقام، نذكر حادثة جرت له في مستهل حياته، سنة ١٩٢٣، يوم كان لا يزال تلميذاً، إذ انبرى للدفاع عن الأب لويس شيخو، بعدما انتقد عبد المسيح حداد بعض ما كتبه في جبران خليل جبران. فكتب فؤاد أفرام البستاني: "أنا لا أدافع عن الأب شيخو ولا أتحامل على جبران. فإن لكل من الكاتبين في عالم الأدب مركزاً

٩- المشرق، ٣٢ (١٩٣٤)، ٦٥-١٠٨.

١٠- م.ن.، ٣٢ (١٩٣٤)، ٤٠٩-٤٤٠.

١١- م.ن.، ٣٩ (١٩٤١)، ٧٥-٨٧، ١٨٥-٢٠٧.

معروفاً، على ذوي النقد أن يقدّروه كما يشاؤون (...). جبران خليل جبران شاعرٌ رسّامٌ بارع ولّسنٌ قديرٌ وأحدُ حمّلة القلم العربي في هذا العصر، ولكن كتابه البدائع والطرائف يجمع بين الدرّة والبّعة، ومع بدائعه التوافه والسفاسف“ (١٢).

وبعد، فهذا غيضٌ من فيض العلاقة بين فؤاد أفرام البستاني وجامعة القديس يوسف والآباء اليسوعيين. ولكنّه، على ضآلته، يُلقي الضوء على تلازم مسيرتين متكاملتين متعاضبتين رَمَتَا إلى النّهضة بالآداب العربيّة، وإلى تمكين لبنان من تمثيل أبرز الأدوار فيها. فقد التقت المسيرتان يوم دخل فؤاد أفرام البستاني كليّة القديس يوسف، ثمّ تألفتا وتآزرتا لتثمرتا دراساتٍ وأبحاثاً أغنت عقول الطلبة اللبنانيين والآتين إلى لبنان من عربٍ وأجانب، وأذهانَ القراء على امتداد المعمورة.

وهذه المسيرة مستمرة اليوم: ففؤاد أفرام البستاني ما زال حاضراً في معهد الآداب الشرقيّة بحضوره بالأمس (١٣)، وحضوره في هذه الجامعة الكريمة. فبيننا جميعاً وبينه صداقة عميقة الجذور، ووفاء لا يني على كُرّ الأيام. ونأمل أن نكون له بمنزلة ذاك الصديق الذي خاطبه في إحدى قصائده، وهو في مقتبل العمر، فقال:

١٢ - م.ن.، ٢١ (١٩٢٣)، ٩١١، ٩١٢. للمقابلة: أميف ستو، "فؤاد أفرام البستاني في مجلة المشرق (١٩٢٣-١٩٥٢)"، حوليات معهد الآداب الشرقيّة، ٧/٢٥-٢٦.

١٣ - ممّا خصّه به معهد الآداب الشرقيّة، المجلّد السابع من حولياته (جامعة القديس يوسف، بيروت، ٢٠٠٠) الذي تضمّن ثلاثاً وعشرين مقالة بالعربيّة والفرنسيّة والإنجليزيّة، أهداه إياها زملاؤه وتلاميذه في لبنان وفرنسا، خُصّصت ثلاث منها لمعالجة بعض الجوانب من شخصيته

ذم لي الغمر رفيقاً وخليلاً
 ودليلاً في تعاريج الحياة
 واقتبيل مني صفاء لا يحول
 ووداداً خالصاً حتى الممات
 وإذا السهر تغرّز
 وميننا بالبُعاد
 افتكر بي وتذكّر
 بعض ما في ذا الفؤاد
 يا صديقي (١٤)
 فنحن نفتكر، ونحن نتذكر.

وإنتاجه. وقد تناوله الدكتور ولهم الخازن بكلمة في مؤتمر الدراسات الشرقية في جامعة
 القديس يوسف، الذي نظّمه معهد الآداب الشرقية لمناسبة انقضاء مائة وخمسة وعشرين سنة
 على تأسيس جامعة القديس يوسف، وذلك في ٢٤ شباط ٢٠٠٠ (أعمال المؤتمر قيد
 الطبع). وقرّست الأخت ريموند هاشم، "مقالات فؤاد أفرام البستاني [الأدبية] في دائرة
 المعارف: فهرستها وتحليلها"، في رسالة ماجستير، في اللغة العربية وآدابها، أشرف عليها
 الدكتور متري بولس، في معهد الآداب الشرقية، بيروت، ٢٠٠٤.
 ١٤- المشرق، ٢٣ (١٩٢٥)، ٥٩-٦٣.

ملحق

أمير أعلامنا*

تمايدي، بعلبك، اليوم رجع صدي

لجّر ريشته من ميد العندا

أمير أعلامنا، لا الصبح ضارعة

ضوءاً، ولا الليل جاري عمقه بُعدا

أعطى ذرانا شموخاً، عقلنا كبراً،

أعطى شيعاف السما زرقاتها الجندا

رؤى لنا الأمس؟ هذي هم، هو - اشتعلي

رؤس الجبال - رؤى الأمس استحالة غدا

من بعده الدهر أفتى أن صباه بنا،

راء إلى.. الروض على يقرأ الجلدا

* قالها سعيد عقل في أربعين فؤاد افرام البستاني، التي أقامتها جامعة سيدة اللويزة، وشارك فيها وجوه كبرى في مملكة القلم. وقد نشرها الشاعر في مجموعته: نحت في الضوء، الصادرة عن منشورات الجامعة - الطبعة الأولى ٢٠٠٤.

إِنْ رُحْتُ أَطْرِيهِ يُغْضِي رَأْسَهُ دَعَةً
كَرَأْسِ صَنْثِينِ يَهْوِي - إِنْ هَوَى - صُنْعُدا

مَا نَحْنُ مِنْ قَبْلِهِ؟ أَرْضٌ لَهَا سَعَتَا
مِنْ دِلِ حَسَنَاءَ يَحْكِي عَنْقَهَا غَيْدَا

وَبَعْدَهُ نَحْنُ نَحْنُ الْعِلْمُ قَاطِبَةً
أُورُوبُ نَحْنُ كَتَبْنَاهَا نَهَى وَيَدَا

نُوحِي إِلَى عِلْمٍ "بِيرَارٍ" الْعَظِيمِ، بِمَا
يَرُوحُ يُوْغِرُهُمْ أَهْلَ الْقَلَى حَسَدَا،

سَطْرًا وَلَا الشَّمْسَ: "كَانَتْ أُمُّ أَرْبَعِنَا
فِينِيقِيَا، وَرَبِينَا الْبُقْعَةُ الْوَلْدَا"

مَعْلَمُ الْعَصْرِ، مَا تَعْلِيمُهُ؟ كِبَرٌ
كَالْبَرْقِ، كَالرَّعْدِ هَزُّ الْمُزَرِّ وَالْمُرْدَا

يَسِيغُهُ الْكُلُّ، أُمٌّ فِيهِ قَبْلَ أَبِي،
وَقَلْبُ أُمٍّ، وَلَوْ فِي الْقَبْرِ، مَا بَرْدَا

مُقِيمُ النَّاسِ إِمَّا النَّاسُ مِنْ ذَهَبٍ
فَإِنْ هُمْ مِنْ تَرَابٍ عَفَّ مَا نَقْدَا...

إن راح يَسْخَرُ أبقى الهُزءَ مُحْتَشِماً
ما مات، قلت، الذي أَرَداهُ، بل رَقدا...

حَبَبْتُهُ أنا حَبِّي الشَّمْسَ طالِعَةً...
لِذا تَفَهَّمْتُهُ، في الأَنْجُمِ، الحَرَدَا

ولي أنا يَهْوِي البُدَّاعِ غَيُّ غَوٍ
والنهرُ لِلنَّهْرِ إِمَّا مِنْهُمَا ارْتَفِدا...

عَقَلَ كما القَلْبُ لَفْحاً، وهو آوَنَةٌ،
يَدُ إلى رَبِّ قَصْرِ مَكَّةَ نَجِدا

يَبْنِيهِ... يَرْجُوهُ يَبْنِي... راح يُوَجِّعُهُ
أَنْ ظَلَّ لا أَحداً مَنْ شَاءَهُ أَحدا...

في أَسِّ تَعْلِيمِهِ أَنْ الثَّقَافَةَ ما
جَبَلْتَهُ بِكَ، دِرْعَ حُبِّكَتِ زَرَدَا

تَقُولُ أَعْطَيْتُكَ؟ كَابِرُ، هذه ضَبُولَتُ...
مَوْعُودُهَا؟.. جُزْءُ، سَلْطَنُ، كُنْتُ مَنْ وَعَدَا

مُنْشِئُ العِلْيَةِ الأَحْرَارِ، شِلْتُ بِهِمْ
نَهَدْتُ تُبَدِّعُ، لَبَّاكَ الَّذِي نَهَدَا

أبعلبك يدالك؟... اشهنهما رمنا

إلى الزمانِ عَمَارَاتٍ حَلَوْنَ حِدا

حَبَبْتُ صَعْبَكَ قال الضوء، كُلُّ صَفَا

قَصَبْتُ قُلْ حَجَرَ لَا اغْبِرُّ لَا كَمِدا

كأنما الشمسُ إذْ وافتْ مَكَلَّمَهَا

قالت: أنا زَنْبِقِي كَلَّمْتُ وَالْوُرْدَا

ورائعٌ أَنْ تَضِجَ الشمسُ في أدبِ

لبنانٍ مُلْهَبُهُ وَاللَّهْبُ مَا هَمَّدا

كَأَنَّ هُنَا الصُّخْرُ صَبَّكَ الْمُلْهَمِينَ، كَأَنَّ

هُنَا عَلَى الشَّطِّ غَاصَّ اللَّهُ... وَابْتَرَدَا...

مَا وَحَدَّهَا أَرْضُنَا افْتَتَتْ بِسَاحِلِهَا

وَبِالْجِبَالِ أَنْيَقَاتٍ وَلَوْ جُرَّدَا

الْبَحْرُ زَائِدٌ - هَذَا بَحْرُنَا - أَوْ مَا

قَالُوهُ زُبْدَةٌ فِكْرٍ خُمَّرَ الزُّبْدَا؟

هُنَا فَتَحْنَا، فَتَحْنَا فِي السَّمَاءِ، بِهَا

هُمْ اكَتَوُوا، نَحْنُ جَنُّنَا لَهَا جُنُّدَا

وقال نعرفها غيباً وتهجئة
هذي السماء التي صارت لنا بلدا...

وكان عونك سطرأ خطه لعلّي،
لكلّ اغراء لا من عليّ صمدا

كأنما الشرف القامات واقفة
كالرّمح لا الصبر أكدى^١ لا الصبا نفدا

ففي الثمانين تلقى الدرس شمع لظي
كابن الثلاثين سخرأ جدّة وندي

تراك وحدك تدري ما الزمان، بها
فتحت فتحك؟... قل، يا ماردأ مرّدا

وما الزمان؟ - تهيب، عقل، إن طمحت
رؤاك تطلب رصّد النجم ما رصّدا -

قل الزمان اخترعناه ولا سنّد
له، ولما اخترعناه غدا السنّدا

١- بخّل

مدى نعين ما بين الهنا وهنا،
لم بين عيش وعيش، لا؟ نقول: هدى

أن يحوي العبر هذا قمقم، ولئن
نقبله قمقمه نقبل له الجسدا

بلى الزمان ولا الاشياء. زد: وعلى
رغماتها، جذه شيئاً رأس من وجد

وينح الأولى جهلوه قال صار. هم
لم يخصصوه، هو استرخى، جفا، جرّدا

والآخرون الأولى عاشوه شيء على
خذهم على، خذهم التاريخ ضجّ جدا^٢

معلم، اغنم معي عز الزمان، أنا
حبست آماده في كلمة أمد

قصص، قيّمت، قلت الغابرين كان
بنات صوّر... وصوّر اختارت البرّدا...

٢- عطية

حتى العدى غنموا منك: انزعت بهم،
كالخب، حبة خير، موسماً رغداً

تبلوهم بك، تعطيههم دروس هدى
بالسيف؟... تصغر. بل بالسيف ما غمداً

ماذا المدي، يوم حرب، لا جبين لها؟
لها... وشمخته شرط اصطكاك مدي

وكننت لي أنا ما؟ سيناء ملهمة،
للعصر مدّاً له، للأعصر المدداً

غرذت، أشهد، لا إلا لتسمعي،
هزرت رأسك ترضى، قلنتي غردا.

وقلت بي ما رمى الدنيا على قلبي
أعطى اتضاعي رفاهاً، جهلتي رشداً

على الأولى يكبروني قلت أن قلبي
مضى يؤثر؟ هذي المجدد محتشداً

لا ما قرأت أنا سنطراً أحب إلى
من ماد خضر القوافي بعده ميّداً

مَقْلَدَ النَّاسِ سِيفاً، ظِلٌّ مِقْبَضَةٌ
وِظْلُهُ هُوَ يَرْضِي عَلَيْهِ وَعِدَى

ماذا ثراني أعطى أن أقول أنا
ما أنت للعصر؟ خذها شععت بكدا:

العصر أنت، فما تتركه مترك
ومن ختمت على مجد له مجدا

والعصر كلاً بكل جاء في عرس،
يوم الوفاء، يحيي فيك من فردا

لا رأس أشمخ من هذا الذي حملت
كثفالك، يختال فيه الضوء متقددا

عقل عطية من أعطى، تقول به
دنياه: زايدت، لكن فاقني زيدا

كان به قِمَمُ التاريخ حاضرة
دوماً، لها سهمها في فكه العقدا

"لبنانك الدائم" استولت عليه ربي،
فردهن جبالاً لعباً بمدى...

مَنْ مَارِدٌ؟ سَلَكَ أَنْتَ، الْعِلْمُ أَنْتَ وَلَا
إِلَّاكَ. مَنْ مَارِدٌ؟ مَنْ جَوَّدَ الْعَدَا

وَالجَوْدَةُ؟ اكسِرْهُ طُوقَ الْفَوْقِ، حُطُّ هُنَا
يَدُ السَّمَاءِ ازْدَرَتْهُ سَرْدٌ مِّنْ سَرْدَا

كَيْمَا يُطِيلُ الَّذِي كَالشَّيْغِرِ صَالٍ: أَنَا
لَمْ أُعْطَةَ الْأَزَلَ، اْعْلُولِيْثْنِي الْأَبْدَا

مَنْ، مِّنْ صَبَا الدَّهْرِ، مِمَّنْ رُحْتَ تَقْدُرُهُمْ،
غِيَابٌ وَجْهِ هُمْ أَمْ حَاضِرُونَ بَدَى

لَهُ مَهَابَةٌ رَبٌّ، كَيْ أَحْمَلُهُ
تَاجًا بِبَالِ نُجَيْمَاتِ الضُّحَى وَرَدَا؟

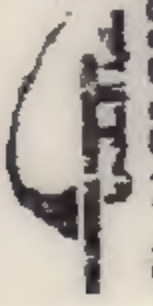
مَنْ؟ لَسْتُ أَعْرِفُ. إِلَّا أَنْ يَضِجَ فَمِي:
تَنْحُ، يَا عَرْشُ، قَبْلَ الْعَرْشِ قَدْ خَلَدَا

المحتوى

٩	سهيل مطر	رزق الله
١١	الأب بطرس طرييه	
١٣	إيلي الفرزلي	
٢١	مروان حماده	
٢٥	عصام كرم	ارتقى من واحة المثقف إلى رتبة العارف
٣١	د. حارث البستاني	
٣٩	محمد البعلبكي	
٤٣	Fouad Boustany Dr. Albert Sarah	
٤٩	هنري زغيب	
٥٥	د. منصور عيد	
٥٩	د. أحمد أبو حاقه	
٧١	د. دياب يونس	هرم من أمجاد وأنوار
	د. غالب غانم	فؤاد أفرام البستاني في يومه
٧٧		من الشخص ومن دائرة المعارف؟
	البروفسور أهيف سنو	
٨٣		فؤاد أفرام البستاني وجامعة القديس يوسف
٩٥	سعيد عقل	أمير أعلامنا

86

2

 Bibliotheca Alexandrina



0708465

ISBN: 9953-418-55-1

